كتب ثقافية
الكتاب ٣٩

محمد الرسول ﷺ

"قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي"
قرآن كريم

دراسة تحليلية لشخصية محمد وحياته

الجزء الأول

بقلم
أنور الجندي

مدخل

مقدمة

كانت شخصية محمد « صلى الله عليه وسلم » الإنسانية مدرسة للرجولة وقدوة للإنسان من حيث هو « إنسان » بتصرفاته وحكمته وضبط أعصابه وسلامة صدره وإيمانه بفكرته . كما هو قدوة للزعماء والقادة في معاملة خصومه وأنصاره على السواء .

وستظل حياة محمد مثلا أعلى لحياة الإنسان الكامل الذى جمع فى شخصه كمال الشخصية . العابد المؤمن . والمحارب القوى . والقاضى العادل . والحاكم اليقظ فقد استطاع أن يمتلك قيادة الجماعة بأرفع ما امتلكها زعيم أو قائد .

وهو حبيب إلى قلوب العرب جميعاً . ليس باعتباره زعيم دعوة دينية : وإنما باعتباره سيد من سادات العرب . ونخر من أمجاد تاريخهم . بل لقد أصبح حبيباً إلى قلوب عدد كبير من عباقرة الفرنجة وأعلامهم .

«ومحمد بن عبد الله» بعد هذا كله بطل عربى كبير ، هو موضع

الاعزاز من المسلمين والمسيحيين على السواء باعتبار أن بطولته هى جزء من عظمة الأمة العربية التى تحقق لها السيطرة والتوجيه للعالم حقبة طويلة من الزمن كانت خلالها حامية الحضارة والأمينة عليها وذات الفضل الواضح فى زيادتها والإضافة إليها .

ولقد حرصت أن أدرس « محمد الإنسان » : أدرس شخصيته بأسلوب جديد يقوم فى أغلبه على أساس عرض نماذج وصور من هذه الحياة دون تعليق كبير عليها تاركا لهذه الصور وحدها قوة النفاذ إلى النفس المحبة لعظمة نفس كبيرة . ويكفى أن تعرض هذه الوقائع عرضاً جديداً بطريقة مبتكرة لتحكى بنفسها قصة الحياة الإنسانية فى شخصية محمد .

ولقد مضيت أحقق هذا الجانب الذى أغفله الكثير ممن تناولوا السيرة وهو الجانب النفسى والشخصى الخاص .

وصورت كيف كان النبى إنساناً يأخذ حظه من الحياة ويتصرف فى الأمور كما يتصرف البشر . وكان فى صميم طبيعته البشرية الرجل الذى يتناول الأمور بعقله ويقضى فيها بتجربته الخاصة .

وأنه قبل أن يكون نبياً — وفى خلال أربعين سنة قبل بعثته — كان إنسانا محبوبا موصوفاً بالأمانة والخلق . أوتى الشمائل الحلوة فى حديثه واتصاله بالناس حتى لقد ارتضته القبائل جميعاً حكما ، عندما دخل الكعبة وهم يتنازعون فى شأن الحجر الأسود . ورضيته خديجة زوجاً لها ووصفته بأنه يحمل الكل ويعين على نوائب الدهر .

لقد ذهب كثير من المؤرخين إلى المبالغة فى تجسيم عظمة شخصية محمد ولم يكن تاريخه صلى الله عليه وسلم فى حاجة إلى مثل هذا . فإن عظمته فى بساطته وقربه من التصرف الإنسانى ، وبعده عن الغلواء . كما ذهب البعض الآخر إلى الاستزادة فى قدر الصلة بينه وبين السماء حتى كاد هذا الجانب أن يطغى على جانبه الإنسانى الضخم . وفى ذلك ما فيه من تجاهل للطبيعة الإنسانية ، وتحامل على الرجل من حيث هو إنسان وبشر .

لقد كان محمد قبل كل شىء إنساناً ممتازاً ، أوتى قوة الشخصية هذه القوة التى تسيطر بالجاذبية المودعة فيها . وبالإقناع والحب والإشعاع لا بالقسر ولا بالقوة . كما أوتى الجرأة والبلاغة والمرونة

والحكمة : وهى صفات إنسانية كانت بعيدة الأثر فى قدرته على أداء رسالته .

وإذا قيل إن النصر يرجع إلى الإيمان فإن الإيمان إنما يرجع إلى الإلتفاف حول القائد وافتدائه والثقة به وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الحب متبادلا بينه وبين جنده . ولقد كان أصحاب محمداً يحبونه إلى أبلغ حدود الحب ويفتدونه غاية الفداء . ويرجع هذا إلى شخصيته أولا .

وكذلك كان محمد على مبلغ الخصومة التى كانت بينه وبين أعدائه موضع الاحترام والثقة والمهابة منهم . كانوا يرون فيه الرجل الصادق الذى لا يكذب والأمين الذى لا يخون والوفى الذى لا يغدر .

وقد تجلى هذا فى موقفهم منه قبل الدعوة فى شأن الحجر الأسود . وفى أول البعثة عندما ناداهم على الصفا . وفى فتح مكة عندما عفا عنهم وأطلقهم وهو أقدر ما يكون عليهم . ذلك هو محمد الإنسان فى شخصيته التى نعرضها فى هذا الكتاب .

أنور الجندى

قصة التاريخ

« إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم .

كنت نبياً وآدم بين الماء والطين . إنى عبد الله وخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته . إنى دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى » .

[محمد صلى الله عليه وسلم]

ولد يتيما من الأب . وماتت أمه وهو طفل . وتنقل بين كفالة جده عبد المطلب . وعمه أبو طالب ؛ وأرضعته حليمة بنت ذويئبة السعدية ، بعد أن أعرضت عنه المراضع ليتمه ، وقد ترددت بين أن تأخذه وأن تدعه . حتى إذا أظمنت كرهت أن ترجع بغير رضيع . وقالت : والله لأذهبن إلى هذا اليتيم ولآخذنه . وقال زوجها : لا عليك أن تفعلى . وعسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وأقام صلى الله عليه وسلم بالصحراء فى بنى سعد إلى الخامسة من عمره حتى كان يقول فيما بعد لأصحابه : «أنا أعربكم . أنا قرشى، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .

رحل إلى الشام فى الثانية عشرة من عمره ، واشترك فى حرب الفجار ، وجمع السهام التى تقع من هوازن » ودفعها إلى أعمامه ، ثم حمل السهام ، ثم رمى السهام بنفسه .

واشترك فى حلف الفضول ، وكان يقول : « ما أحب أن لى

بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ، ولو دعيت به لأجبت » .

ورعى الرسول صلى الله عليه وسلم الغنم ، وكان يقول « ما بعث الله نبياً إلا راعى غنم » .

* * *

ثم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم استنبىء على رأس الأربعين ، وألقيت على قلبه كلمة الحق ، لأول مرة فى غار حراء ، فكان الإسلام دعوة فى قلب « فرد » .

وأرسله الله تعالى إلى قومه داعياً إلى الإسلام ببطن مكة من الجزيرة العربية ، وكانت مكة على الوثنية المخرقة من عبادة الأصنام فأسر بالدعوة حتى أذن الله له أن يجهر بها . فدعا عشيرته الأقربين ثم أذاع الدعوة فى الناس جميعاً ، فاكتمل له فى ست سنوات أربعين رجلا إلا واحداً .

وقد أخذته قريش بالمساءة . فما تركت سلاحاً من أسلحة الاضطهاد إلا اصطنعته . حاربته باللسان واليد والقاء التراب

والروث، وتعذيب اتباعه فما ضجر لذلك، بل استقبله صابراً محتسباً، مؤمناً بتأييد ربه ونصره .

والوحى رواح غداء ، بآى الذكر الحكيم ، يثبت به فؤاده ويرسل إليه مزيداً من التأسى والاصطبار. ويروى له ما كان من جهاد الأنبياء والرسل وذوى العزم – مع الناس من قبل – وما لقى هؤلاء وأولئك من تعذيب واضطهاد ، فصبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصر الله .

« إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا » ذلك هو نذير النبوة الأولى « لتكذبن ولتؤذين ولتخرجن » وهذا هو نذيرها الثانى .

ثم ماذا ؟ .

حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا . أتاهم نصرنا» وحاولت قريش مع رسول الله المحاولات . ترده عما يدعو إليه ، تعمد إلى اللين تارة وإلى التهديد تارات . احتكمت إلى عمه فى أمره مرات . وساومته على أن تجعله ملكا أو غنياً ، فكان رده تلاوة آيات من القرآن ، كانت موضع التأثير البالغ فى نفس مساومه ، فمضى على أثرها مذهولا مأخوذاً .

* * *

واشتدت وطأة قريش على محمد وأصحابه ، لما رأت من كثرة أتباعه فتآمرت على عقد « مقاطعة اقتصادية » قاسية ، كتبت بها صحيفة علقت فى جوف الكعبة ، وحصرت بها محمداً وأصحابه فى « شعاب » مكة ثلاث سنوات . لا يبيعون ولا يبتاعون ، كان طبيعياً بعدها أن يأمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة علهم يجدوا بها حظاً من الأمن والحرية . فهاجر فريق منهم فاراً بدينه من طغيان قريش .

ولم يقف أمر الاضطهاد عند هذا الحد . . بل تعداه إلى أشد حالاته بعد موت أبو طالب وخديجة . وانتهى ذلك إلى هجرة رسول الله إلى الطائف . فوجد من أهلها أقسى مما لقى من قريش عسفاً ومساءة ، فقد تألبوا على قتله ، فلما انصرف شقوه بالأحجار فى عقبيه الشريفين حتى دميتا ، فلما اشتد به ، جلس يستجمع قواه . ودعا دعاءه المعروف « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس » واستمع إليه جن نصيبين فأسلموا ، بعد أن استمعوا إلى القرآن ، وأقام بنخله أياما قبل أن يعود إلى مكة ، وقال له رفيقه زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم مكة وقد أخرجوك ،

قال يا زيد : إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً . وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وامتدت أعوام الاضطهاد بالمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة ثلاثة عشر عاما منذ أذن بالدعوة ، وامتدت مع هذه الأعوام صور العنت فى مختلف ألوانه وصوره ، صباح مساء ، ما يزعزع ذلك من إيمانه وصحبه شيئاً ، بل كان يزيدهم قوة وإيماناً وصبراً ويقيناً ، وهو بين ظهرانى المسلمين ، يلقاهم فى ابتسامته الكريمة ، وبشاشته الرضية ويذكرهم بوعد الله بالنصر وإنه لآت .

ودهشت قريش لأمر محمد وأمر أتباعه ، وأغراها هذا الصبر والثبات على المحن ، إلى أن تسترسل فى غيها ، وتزداد فى إعناتها ، وقريش مع هذا كله تعلم صدق « محمد » ؛ لكن كبرياءها وتمسكها بمخلفات الآباء من مجد وهمى ، ظل يصرفها عنه صرفا ، ويزيدها إلى اضطهاده دفعا ، وهى تتعلل إلى ذلك بالعلل « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » إنه التعصب البالغ لمخلفات الآباء ، والحقد البالغ على ما أوتى محمد « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وهم مع هذا الحقد يتسللون إلى مصلى رسول الله فيستمعون إلى القرآن ليلة فليلة .

ثم مضى كل فى طريقه ، محمد دائب على إبلاغ دعوته لا يضيره من أمر هذا التآمر شيئا . وقريش ساعية فى طريقها تبحث عن الوسائل التى ترد بها الناس عن دعوة الحق ، أو تقضى بها على محمد وأمره وصحبه .. حتى أسرى به صلى الله عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به إلى السماء ، ثم ما لبث

أن عاد إلى فراشه قبل أن يشرق الصباح ، وقد فرض عليه ربه الصلاة ، فلما أصبح أخبر الناس فاشتد تكذيبهم له وارتابت قريش لحديثه ، وأخذ فريق منهم يسألونه عن أمر بيت المقدس وصفته وهو يجيبهم ، وما يقنعهم ذلك ، أو يرسل إلى قلوبهم بصيص من الإيمان بدعوة الله .

وقد ارتد عن الإسلام بعد هذا الحديث فريق من ضعاف الإيمان الذين أصابت نفوسهم الريب فى أمر الإسراء والمعراج . وما لبث أمر الدعوة الإسلامية أن تكشف عن ضياء جديد ، يأتى من طريق « يثرب » فقد أخذ محمد يعرض نفسه على القبائل حتى جاء سبعة من أهلها . التقوا به عند العقبة ، فلما سمعوا منه قالوا : والله ان هذا هو الذى تواعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه .

فلما انصرفوا إلى قومهم ، وافوا الموسم عام قابل وهم اثنى عشر ، فبايعهم رسول الله بيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم أول سفير فى الإسلام « مصعب بن عمير »

فلما استدار العام ، وأقبل الموسم ، وآفى ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتان ، واجتمع بهم رسول الله فى هزيع من الليل ، فبايعوا البيعة الكبرى :

فلمــا عادوا إلى يثرب أذن محمد لأصحابه بالهجرة فكان بين أولهم وآخرهم أكثر من عام . فجعلوا يترافقون بالمـال والظهر ، وكان من أولهم هجرة أبو مسلمة عبد الله بن عبد الله ، وعمار بن ياسر ، وسعد بن أبي وقاص . وابن مسعود ، وبلال ، وآخرهم هجرة رسول الله وأبو بكر وعلى بن أبى طالب .

وقد ظل رسول الله مقيما فى مكة حتى هاجر أتباعه فلم يكن إلا آخر من هاجر منهم .

وأذن الله لرسوله فى الهجرة بعد أن تجمعت قريش حول داره تحاول أن تقتله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وخرج فألقى عليهم التراب . ومضى إلى بيت صاحبه «الصديق» فركبا إلى غار ثور . فاختبئا فيه ثلاثة أيام ، وقريش تنهب الأرض نهباً ، وتتبع الآثار ، وتعرض العروض ، وتصل إلى باب الغار ، ثم ترتد عنه ، وقد غشاه العنكبوت وباض على بابه الحمام .

« الا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذهما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل

الله سكينته عليه . وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا » .

وفى يوم الاثنين الأغر « الثانى عشر من ربيع الأنور » على رأس ثلاث عشر سنة من البعثة ، نزل إلى جانب الحرة ، فمضى فى طريقه ومعه صاحبه حتى أشرف على « يثرب » .

وكانت طوائف المؤمنين من المهاجرين والأنصار تخرج كل يوم إلى ظاهر المدينة تنتظر مقدمه فاذا هى ذات يوم ، وقد صاح اليهودى مناديا : « يا بنى قيله ، هذا : جدكم الذى تنتظرون قد جاء » ومضى فى طريقه ، كل قبيلة تحاول أن تعرض عليه نفسها ليأوى إليها ، وتنادى هلم إلى المنعة والقوة والثروة يارسول الله فيقول لهم خيرا ، وناقته ماضية فى طريقها ، وقد أرخى زمامها ، فلم تزل سائرة به حتى بركت بمربد بنى سهل وسهيل من بنى النجار ، ومن مبركها بنى النبى مسجده ، وعمل فيه بيديه ، ثم بنى مساكنه إلى جواره ، وأقام رسول الله ببيت أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر .

وبدأ عمله فى المدينة بكتابة أمان وموادعة لليهود ، ويعد هذا الأمان من أعظم وثائق التاريخ الإسلامى .

وآخى بين تسعين رجلا من المهاجرين والأنصار ، وظل الأخاء مقدما على القرابة ، حتى اشتد ساعد الدعوة فنسخ التوارث بالمؤاخاة بعد « بدر » .

باستقراره في المدينة انتقل الإسلام إلى مرحلته الطبيعية « مرحلة الدولة » القائمة على النظام القرآني ، ومن ثم تمت صلاة المقيم أربعاً بعد أن كانت ركعتين . وفرضت الزكاة ، وأذن الله بالقتال ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير » .

وقامت الدولة الإسلامية الجديدة على قواعد العدالة والاخاء وكفالة الدم والمال والعرض . ثم أذن للصلاة ، وأسلم عبد الله ابن سلام من أكبر أحبار اليهود ، وحاول اليهود الوقيعة بين الأوس والخزرج بعد أن جمعهما الله على الإسلام،وصرف الله الكعبة إلى مكة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً بعد الهجرة .

وبدأت عصبة المسلمين تواجه صراعاً جديداً بينها وبين خصومها ؛ صراعا من نوع آخر يختلف عما لقى المسلمون بمكة فقد كان في المدينة اليهود ، وهم قوم جدلون خصمون ، وقد طال

جدلهم ، وطال بهم القآمر ، بعد أن أظهر الله أمر رسوله .

منذ فرض الله القتال ، والسرايا الإسلامية لاتنقطع . وقد بدأها بعث رسول الله لعمه حمزة بن عبد المطلب . فى ثلاثمائة ، إلى ناحية « العيص » على رأس ثمانية أشهر من الهجرة ، وكان أول من رمى بسهم فى الإسلام : سعد بن أبى وقاص ، فى سرية عبيد الله بن الحارث .

وأخذ المسلمون يترصدون عير قريش ، وتوالت سراياهم . بل أن الرسول خرج بنفسه على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمة المدينة وسار إلى الأبواء ثم خرج بعد ذلك مرتين أوثلاث

وقد كانت هذه السرايا تدريباً وإعداداً للجيش الإسلامى وترصداً لعير قريش . فلما خرج أبو سفيان بقافلته الضخمة ترقبه المسلمون حتى إذا أقبل عائداً من الشام ، ندب رسول الله المسلمين لها ، وقال : هذه عير قريش فاخرجوا إليها . لعل الله ان ينفلكموها ان الله وعدنى إحدى الطائفتين : العير أو النفير

فخرج محمد لثمان خلون من رمضان من السنة الثانية من

الهجرة بعد أن استعمل على المدينة « أبا لبابه » وجعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة . واعتقب كل ثلاثة من المسلمين بعيراً . وكان رفيقا رسول الله : على بن أبى طالب . ومرثد بن أبى مرثد الغنوى . وقد استأذنا رسول الله فى أن يظل راكباً بعد أن قطع مرحلته ، فأبى عليهما وقال : ما أنتما بأقوى منى ، وما أنا بأقل حاجة إلى الأجر منكما .

وأخذ رسول الله يبث عيونه فى حصافة القائد الخبير ويتنطس الأخبار ، فلما وصل المسلمون أدنى ماء بدر تبينوا أن أبا سيفيان اتخذ طريقاً مغايراً ، فقد حاذى سيف البحر ومضى بالعير فى الوقت الذى خرجت فية قريش تدفع عن قافلتها عدوان المسلمين ومن ثم تغير وجه الأمر ، من العير والغنيمة ، إلى ذات الشوكة والحرب .

واستشار صحابته فتكلموا واحداً بعد واحد ، ورسول الله مايزال يقول عبارته الخالدة « أشيروا على أيها الناس » ومن ثم وثب « سعد بن معاذ » وقد أراده رسول الله ، وأحب أن يعرف رأيه ورأى أصحابه ، من الأنصار الذين بايعوا يوم العقبة على أن يمنعوا رسول الله فى حدود مدينتهم ولم يتعدوها بعد .

فقال كلاما طويلا خلاصته النصر والتأييد والنصرة ، ومن

ثم نزل المسلمون بدراً وأفطر الصائمون ، ونشبت الحرب ، وأيد الله رسوله بالآيات والملائكة والمطر .

والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبعة عشر خلت من رمضان ، وقد أمد الله المسلمين بالنصر . وقتل بلال معذبه وواضع الحجر على صدره « امية بن خلف » وأخذ رسول الله حفنة من الحصباء فرمى بها قريش ، وهو يقول « شاهت الوجوه » ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً ، وأذل الله ببدر رقاب المشركين

ورأى رسول الله فى الأسرى رأيا ، وأنزل الله أمره « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم »

وقد ألقى نصر الله للمسلمين فى بدر ، الفزع والرعب فى قلوب القبائل والبطون ، ومن ثم بدأ اليهود يأتمرون ، فأخذهم رسول الله بالقوة ، بعد أن لم تفلح المهادنة ، فقتل المسلمون منهم أبو عفك وعصماء وكعب بن الأشرف . وقد كانوا يعيبون الإسلام ويؤذون النبى .

ثم حاصر المسلمون بنى قنيقاع فأجلوهم عن المدينة

ثم بدأت قريش تتجهز للثأر من بدر ، وتهيأ لقتال المسلمين وقد سارت جموعهم إلى المدينة ، وبلغ خبرها رسول الله قبل أن تتحرك . فشاور أصحابه فقال أغلبهم بالتحصن بالمدينة العذراء التى لم تفص على أهلها قط . ولـكن فريقا ممن لم يشهدوا بدراً أحبوا أن يخرجوا إلى العدو حتى لا يظن أنهم كرهوا الخروج أو جبنوا عنه .

وخرج محمد وقد لبس درعه وتقلد سيفه . وقد تراجع المسلمون إلى الرأى القائل بالبقاء فى المدينة فقال النبى : « قد دعوتـكم إلى هذا الحديث فأبيتم . وما ينبغى لنبى إذ لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه . انظروا ما آمركم به فاتبعوه . والنصر لـكم ما صبرتم » .

وخرج المسلمون إلى « أحد » وقد انفصلت كتيبة ابن سلول فقفلت راجعة منخذلة . وكان ذلك من الخير فلا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك .

والتقى الجمعان بعد أن وضع رسول الله الرماة فوق الجبل ، وأمرهم ألا يبرحوا أماكنهم ، انتصر المسلمون أو هزموا . وقاتل المسلمون مستبسلين حتى إذا ظهرت علائم النصر ، وبدأ المسلمون يغنمون ، عندئذ ترك الرماة أماكنهم واهتبلها « خالد » فرصة فأغار على الباقين منهم فقتلهم . ودار برجاله وراء جيش المسلمين ومن ثم دارت الدائرة على المسلمين .

وتصايح القوم أن رسول الله قد قتل ، فى الوقت الذى كان رسول الله محاطاً بالمسلمين . وقريش تقذفه وتقذف المسلمين بالحجارة التى أصابت رباعيته ، وشجت وجهه ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسقطت ثنياته . واستماتت المسلمون فى الدفاع عن رسول الله . وترس سعد وأبو دجانة دون رسول الله . وبقى رسول الله فى هدوء واطمئنان يستقبل هذا الظرف العصيب ، دون أن تفارقه ثقته بنصر الله طرفة عين ولا أقل من ذلك .

واستشهد الكثير من المسلمين بعد البلاء الصادق . والجهاد الطويل ، ومثلت قريش بالمسلمين . وكان أفظعها تمثيلا حمزة ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولكنهم لم يلبثوا أن خرجوا فى الغداة

إلى (حمراء الأسد) وقد أذن رسول الله ألا يخرج إليها إلا من حضر (أحُداً) .

وأقام وأصحابه بها ثلاثة أيام يوقدون النار ويتربصون بقريش أن تعود . ولكن قريشاً كرهت العود ، وقفلت راجعة إلى مكة ثم قفل بعدها الرسول وأصحابه إلى المدينة وقد استرد المسلمون هيبتهم بهذه المناورة العسكرية البارعة .

ولم ينقطع بين غزوتى (أحد — الأحزاب) سيل السرايا . وقد كان أبلغ أحداث هذه الفترة ، حادث الاغتيال فى الرجيع وبئر معونة ، وقصتهما متشابهة ، فقد جاء أقوام يقولون أن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلمونا شرائعه ، ويقرؤنا القرآن ، فأرسل مع أهل نجد سبعين رجلا ضربت أعناقهم ، ولم ينج منهم إلا عمرو بن أمية الذى حمل الخبر إلى رسول الله . وأرسل مع الآخرين عشرة ، قتل منهم ثمانية . منهم خبيبا وزيداً .

وفيما يحدث هذا كله ، يتربص اليهود بالمسلمين الدوائر ، ويظهرون البشر والرضى ، لما يصيبهم من أحداث ، ويأتمرون بهم ، بل لقد ائتمروا فعلا برسول الله عند ما زار محلة بنى النضير قريبا من « قباء »

وقد رجع إلى المدينة . وذكر لأصحابه أمر يهود ، وبعث توا محمد بن سلمه اليهم يقول لهم : إن رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . فلما أخذت يهود تتأهب للرحيل حرضهم ابن أبى سلول على البقاء .

ولم يمهلهم حتى يدبروا أمرهم . بل سار إليهم بعد العشرة ، فقاتلهم عشرين ليلة . فخربوا بيوتهم بأيديهم ، وأمر رسول الله أن تقطع نخيل يهود وتحرق . وجبن « ابن أبى » فلم يوف لهم ماوعد من العون . فسألوا رسول الله . أن يؤمنهم حتى يخرجوا فأمنهم . فخرجوا إلى أذرعات بالشام ، وتركوا وراءهم كل ما يملكون غنما للمسلمين ، وبذلك أجلى رسول الله اليهود عن المدينة فاطمأنت وضربت الذلة على المنافقين الذين كانوا يجدون منهم عونا وسنداً

واستدار العام وذكر محمد كلمة أبى سفيان فى أحد « يوم بيوم بدر وموعدنا العام المقبل » فخرج رسول الله وخرج المسلمون إلى

بدر ، وخرجت قريش ثم عادت بعد مسيرة يومين بعد أن أذّن فيهم أبا سفيان بأنه راجع فليرجعوا

واستقر أمر الله وأمر دعوته بالمدينة ، ولم يكن من اليسير على قريش أن تترك المسلمين دون أن تدبر لهم أمراً أو تكيد لهم كيدا ، ورسول الله بالمدينة حذر يقظ ، يبث عيونه فى أطراف شبه الجزيرة تنقل إليه من أمرها كل صغير وكبير

(٥)

وجاء الوقت الذى نظرت فيه قريش وقبائل شبه الجزيرة إلى رسول الله ودعوته نظرة الخصومة ، فقد كانت الدعوة الإسلامية تلاقى فى ذلك الوقت خصومة اليهود . وخصومة قريش . وخصومة قبائل غطفان وهذيل . فما أن سعت بين قريش وبين هذه القبائل تؤلبها على محمد . حتى استمعت وتماهدت واستجابت . وخرجت غطفان وبنى مرة وفزارة وأشجع وسليم وعلى رأسها أبى سفيان فى أربعة آلاف .

بم لقى محمداً هذه الجموع الضخمة الحاشدة المتمنعة فى أسلحتها وعتادها ؟ لا شىء ! إلا أنه حفر الخندق مع أصحابه ، وعمل فيه بيديه فكان يضرب بيده ، ويحمل التراب ويحدث أصحابه فى يسر وإيناس ويهون عليهم الأمر .

فلما صادفت أصحابه الصخرة الضخمة العاتية ، واستعصت عليهم تناول رسول الله معوله وضربها فى قوة ثلاث مرات تفتتت

على أثرها . وبشر أصحابه بفتح فارس واليمن والشام . وحدثهم عن قصور القياصرة والأكاسرة وصنعاء . وأبلغهم وعد ربهم بامتلاك هذه الأقطار .

وهكذا ، ظهر وميض الأمل والبشرى فى أشد ساعات العسرة والقنوط . فما أن انتهى المسلمون من حفر الخندق حتى برزت جموع الأحزاب تغير على المدينة « وإذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »

أما المؤمنون فقد قالوا حين رأوا الأحزاب : « هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً »

وارتدت هذه الجموع عن الخندق محنقة مغيظة خاسئة حائرة يائسة ، واستمر الحصار شهراً قاسى فيه المسلمون صنوفاً من العنت والحرمان ، وترددت قريش فى البقاء ، وخذلتها عوامل الشتاء وحطمت عزمتها مناورة « نعيم بن مسعود » الذى جاء رسول الله مسلماً مستخفياً فما زاد رسول الله عن أن قال له : خذّل عنا ما استطعت ! فإن الحرب خدعة .

ثم جاءت الريح العاتية والعاصفة الصرصر، فاقتلعت الخيام، وكفأت القدور، وملأت نفوس المشركين واليهود رعباً وفزعاً، فتطيروا ودب فى نفوسهم اليأس، وقفلوا راجعين.

وأصبح المسلمون وليس هناك إلا بقايا من مخلفات الجيوش المهزومة، ولم ينتظر رسول الله حتى يؤذن العصر، ونادى مناديه من كان سامعاً قطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة.

فحاصروا حصن اليهود. وامتد الحصار أكثر من عشرين ليلة. حتى جاع من فيها. وعرضت قريظة الخروج فأبى رسول الله ذلك عليها وقبلوا أخيراً تحكيم «سعد بن معاذ» وقبل رسول الله. وأخذت المواثيق على انفاذ حكمه فحكم بأن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء. فحفرت الخنادق وجىء باليهود فضربت أعناقهم فيها. وقسمت أموالهم وسباياهم. وزاد بذلك أمر المسلمين استقراراً.

* * *

ومضى محمد فى طريقه. ينظم الجماعة ويسوى الصف. ويتعرف وجوه القوة والضعف فيها بعد ذلك الامتحان الرائع

الذى امتحن به المسلمون فى غزوة الأحزاب ، وبعد أن تجمعت شبه الجزيرة جميعاً على هذه الدعوة فى إبانها الغضة . وفى أدوار نضـوجها الأولى تحاول أن تمزقها وتذروها لولا تأييد الله ونصره .

وخرج رسول الله إلى غزوة بنى المصطلق التى أعقبتها فتنة عبد الله بن أبى بن سلول . حين قال لجلسائه :

— لقد تـكاثرنا المهاجرون فى ديارنا . والله ما أمرنا وإياهم إلا كما قال الأول « سمن كلبك يأكلك » . . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأزل .

وكاد أمر الفتنة أن يتسع لولا حكمة رسول الله الذى رد رأى عمر فى قتل (ابن أبىّ) وقال له : كيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه .

وإذن للرحيل فى ساعة لم يكن يرتحل المسلمون فيها . ثم ما كان من إسراع أبى ابن سلول ينفى لرسول الله ما أذيع عنه ، ثم نزول القرآن يؤيد ما أنـكر ابن أبى من قولته الظالمة .

وتتابعت الحلقات . فأذاع المنافقون فى أعقاب العودة من بنى المصطلق ، « حادث الأفك » الذى استقبله رسول الله كما استقبل كل الأزمات والحادثات والمؤامرات من قبل فى رضا وطمأنينة إلى أمر الله ، وفى حكمة القائد الخبير ، حتى نزل الوحى ببراءة عائشة وحكم الله فى رمى المحصنات .

وهكذا تضطرد حياة محمد من حلقة إلى حلقة . كلها النصر للدعوة والتجمع حولها . وكلها الأدالة من الخصوم والمنافقين حتى مضت على الهجرة ست سنوات استقر فيها أمر رسول الله بالمدينة ، بعد أن قضى على شرذمة اليهود الخبثاء الماكرين الذين كانوا أكبر المتآمرين على هذا الدين منذ بزغ فجره إلى اليوم .

وتتابعت الحوادث ، فأمر رسول الله المسلمين بالتأهب للحج مع ما فى نفوس المهاجرين من حنين إلى مكة ، الوطن الأول ، وما فى نفوس الأنصار من شوق إلى بيت الله الحرام .

وأذّن رسول الله بالحج . وأرسل إلى القبائل يدعوها للاشتراك معه ، وساق المسلمون الهدى أمامهم علامة السلم والحج ، لا الحرب والقتال ، وسار ألف وأربعمائة من أتباع رسول الله إلى مكة ملبين بالعمرة ، وعلمت قريش خبر رسول الله فخرجت تلبس جلود النمور . وتنزل بذى طوى ، وسمع رسول الله تأهبهم لمنعه من

دخول مكة . فقال : « يا ويح قريش ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب . فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين .. فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (صفحة العنق) .

وحرص «محمد» على السلم عندما برزت جموعهم تواجه جموعه ، ونادى مناديه : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم ؟ فلما تقدم الدليل سار المسلمون وراءه حتى وصلوا ثنية المزار . فلما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة رسول الله (القصواء) وقال الرسول « إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ونزل ونزل الناس ودارت الرسل بين المعسكرين على أن الرسول وأصحابه إنما جاءوا زائرين لبيت الله العتيق . وأرسلت قريش « الحليس » إلى معسكر المسلمين . فأمر رسول الله أن يطلق الهدى أمامه ، ورآه الحليس . وقد امتلأ به سهل الوادي تأكلت أوباره فأثر في نفسه مرآه . حتى رده إلى قريش دون أن

يلقى رسول الله ليحدثهم عن أمر محمد وصدق نيته فى زيارة البيت .

ثم بعثوا « عروة بن مسعود » الذى حدث رسـول الله فى جفاف وغلظة ، وعرف منه أنه إنما أقبل مع أصحابه معظمين للبيت ومعتمرين وعاد إلى قريش مشدوهاً مأخوذاً : وهو يقول: إنى جئت كسرى فى ملـكه . وقيصر والنجاشى ، ووالله مارأيت ملـكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه . ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . وإنهم لن يسلموه لشىء أبداً : فروا رأيكم .

وخرج بعض سفهاء قريش ليلة فليلة يرجون معسكر النبى بالحجارة بغية أن يصيبوه ، فلما اقتيدوا إليه عفا عنهم ، وأطلق سراحهم . وأرسل رسول الله عثمان بن عفان فطال احتجابه ، وأشيعت الشائعات عن مقتله ، وغدر قريش به «فنادى رسول الله أصحابه وقال : لا نبرح حتى نناجز القوم : ووقف تحت الشجرة وبايعهم وضرب بيده على أيديهم . وقال : هذه بيعة عثمان .

وأيد الحق تبارك وتعالى هذه البيعة بالآيات الـكريمات « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ بايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى

قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

ثم ما لبث عثمان أن عاد إلى رسول الله واتفق المسلمون مع قريش على التفاهم وندبت لذلك «سهيل بن عمرو » الذى رغب إلى رسول الله فى الهودة عامه هذا ، على أن يرد مكة عام قابل فتخلى قريش له حرمها ثلاثة أيام . ليس عليهم إلا السيوف فى القراب !

ودارت « المحادثات » بين محمد وبين سهيل طويلا ، وضاق المسلمون لتشدد سهيل مع تسامح النبى . وكادوا يفتنون فى دينهم لقبول رسول الله عروض قريش وأزعج عمر بن الخطاب لذلك أشد الانزعاج ، حتى حادث أبا بكر وسئل رسول الله فى الأمر وهو يقول : « ألسنا بالمسلمين . فعلام إذن تعطى الدية عن ديننا» ورسول الله يقول له «أنا عبد الله ورسوله . لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .

وكتب العهد وعارض سهيل فى عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » كما اعترض على عبارة « محمد رسول الله » وأقره

الرسول عليهما جميعا . وقبل رسول الله أن يرد إلى قريش من يأتيه منها . ولا ترد قريش من يأتيها من قبله .

وما كاد العهد يوقع بينهما ، حتى قدم أبو جندل بن سهيل بن عمرو مقيداً بالسلاسل يصرخ ويطالب المسلمين بأن يضموه إليهم خوف أن يفتنه المشركين عن دينه . ورسول الله يجيبه فى بساطة وهدوء .

« أباجندل اصبر واحتسب . فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا . عهد الله ، وإنا لا نغدر » .

وحلق رسول الله ونحر . وكذلك فعل المسلمون .

وعاد المسلمون وهم ضائقون بأمر معاهدة الحديبية لولا ثقتهم في رسول الله وما يهون عليهم أمرهم إلا الثقة في القائد والتسليم له في الميسر والمكره سواء .

وإنهم لفي الطريق وعمر يحاذي رسول الله بركابه يحاوره في أمر الحديبية ثم يخشى من أمره فيرجع . وإذا بالوحي ينزل على النبي بسورة الفتح « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فيسر المسلمون وتهدأ نفوسهم وتستريح أفئدتهم . ثم يرون أن أمر الحديبية كان غاية في بعد النظر والدهاء والحكمة ، إنها هدنة السنوات العشر تهيىء فيها الدولة الإسلامية الناشئة أمرها وتثبت قواعدها ، وأنها الاطمئنان من الجنوب ثم هو الاعتراف بالمسلمين وبدولتهم ثم هو التقدير للاسلام

ولا يلبث أمر قريش وهي تعترف بمحمد أن يسري في شبه الجزيرة مسرى النار في الهشيم فيوقظ القلوب الغافية ويرد النفوس المضطربة ، ثم يفد « أبو بصير » من بعد إلى المدينة

مسلماً ، فيرده الرسول وفاءً لعهده ويقول له « إنا قد أعطينا القوم ماقد علمت . ولا يصح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطق إلى قومك . فلما مضى . قال رسول الله ويح امه مسعر حرب لو كان معه رحال : وقد انطلق أبو بصير فساحل البحر ونزل العيص وتسامع به الذين احتجزتهم المعاهدة فى مكة فاعتصبوا على ساحل البحر وقطعوا الطريق على القوافل والمسافرين . وقتلوا كل مسافر ونهبوا كل قافلة حتى بعثت قريش إلى رسول الله تسأله بالارحام أن يقبل هؤلاء ويسقط هذا الشرط وقد كان .

وفى ذلك العام وبين الحديبيه وعمرة القضاء ، انفذ رسول الله أمرين بالغين فى الأهمية ، فقد هاجم يهود خيبر وحاصرهم أعنف الحصار ، وطال أمره ايمانهم بالقوة ففتحوها واحداً واحداً واستقتل اليهود فى الدفاع فلم يغنهم ذلك شيئا . وانهار سلطانهم وأذعنوا لأمر المسلمين وهاجر أغلبهم . وبقى بعضهم ، وبذلك قضى على سلطان اليهود فى شبه جزيرة العرب قضاءاً أخيراً

ثم أخذ رسول الله يرسل الرسل إلى الملوك يعلن اليهم دعوة

. ربه فأرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارثين الغسانى بالحيره والحيرى باليمن والى نجاشى الحبشه يدعوهم إلى الاسلام ، وفى ذلك من الثقه ومن القوة النفسية ما فيه . وقد أجاب بعضهم وامتنع آخرون

واستدار العام ، ومضى المسلمون إلى مكة يشارفون البيت الحرام ويطوفون به وينحرون الهدى ويقضون الفريضة الكبرى ثم يعودون إلى المدينة وقد أسلم خالد بن الوليد الذى قال : لقد استبان لكل ذى لب أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين لحق على كل ذى لب أن يتبعه »

ومضى محمد فى طريقه. وقد استقام أمر لدعوة واستقر أمر الدولة واتجه بصر النبى إلى الشام فأرسل إليها ثلاثة آلاف من المسلمين جعل على رأسهم أمير وخليفتين ، وجعل على الجيش زيد فان أصيب فجعفر ، فان أصيب فعبد الله بن رواحه ، وقد قتل ثلاثتهم فى المعركة وتسلم الراية خالد بن الوليد الذى داور بالمسلمين فى تدبير حربى منظم حتى رجع بأصحابه دون أن يعرضهم لخطر هذا العدد الضخم من العدو . ومالبثت قريش بعد ذلك أن نقضت

صلح «الحديبية» إذ حاولت بنى بكر حليفة قريش — فى الصلح أن تنال من خزاعة حليفة المسلمين .

وأذن رسول الله فى القبائل بالتأهب دون أن تعرف الوجه ، وأوفدت قريش أبا سفيان إلى المدينة ليزيد فى المدة بعد أن يثبت العهد ، فلم يجد إلى رسول الله منفذاً أو نصيراً ، حتى أن ابنته زوج النبى خذلته وطوت فراش رسول الله عنه وقالت له مقالتها .

وتجهز المسلمون دون أن يعرفوا إلى أين . وضبط (على) كتاب (حاطب بن أبى بلتعة) إلى أهل مكة . وعفا الرسول عنه بعد أن استأذنه عمر فى قتله وقال له : مايدريك يا عمر . لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم

وزحف الجيش وهو لايعرف وجهته ، بل يمضى فى طريقه بأمر قائده . وقد اشتركت فيه قبائل « سليم ومزينة وغطفان » فأمتلأ بهم الوادى ، وعلى رأس هذه الكتائب المؤمنة الصادقة رسول الله يبغى فتح مكة ويسأل ربه أن يأخذ عليهم العيون حتى يأتيهم بغتة ، وأن يحقق له أمره دون أن يريق قطرة دم واحدة .

وبلغ مر الظهران فنزل بها وأوقد النار وضربت خيام ألف فارس من المسلمين فغمرت الوادى فأمسى مهيبا رهيبا .

وخرج زعيم قريش «أباسفيان» يلتمس خزاعه وقد ظن أنها قد حشتها الحرب فلما بلغ المسكر عرف إنه رسول الله والمسلمين ، وحاول عمر أن يقتله لولا أن أمّنه الرسول وأذن للعباس أن يذهب به إلى رحله حتى الصباح . واستعصت شهادة الإسلام على أبا سفيان فما نطق بها إلا بعد أن وقف يستعرض هذه الكتائب والنجائب وقد أرهبه أمرها وهزه من الأعماق حتى سأل العباس فى لهف ودهشة « لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » .

وقد استجاب رسول الله لناحية الفخر والزعامة فى نفسه فاعلن أن من دخل المسجد فهو آمن ، وعاد أبو سفيان إلى مكة يحدث أهلها عما لاقبل لهم به

ودخل رسول الله مكة دون أن تلقى جيوشه مقاومة تذكر بعد أن انحنى لربه شاكراً أن فتح عليه مكة دون أن يراق فيها دم . وآوى إلى خيمته التى ضربت له قبالة جبل هند . وذكر رسول الله وذكر المسلمون كيف أخرجوا مهاجرين بعد أن اضطهدم

أهل مكة وثبت لهم أن التربة المكية لم تعد تصلح لما صلحت له تربة يثرب من بعد

وخرج رسول الله فامتطى ناقته القصواء وسار بها حتى بلغ الكعبة فطاف بالبيت سبعاً . ثم وقف على باب الكعبة ووقفت قريش تسمع ماذا سيكون من أمرها بين يدى رسول الله ، وهى التى آذته وأخرجته ولم تدع مكيدة فى سبيل تحطيم دعوته إلا اقترفتها ثلاثة عشر عام كاملة ، ثم كيف مكرت بعدذلك بالمسلمين فى أحد والخندق ، ولكن رسول الله كان عفوا صفوحا .

قال يامعشر قريش : ما ترون إنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وهكذا صدر العفو العام من القائد العام بعد أن أمكن الله لها من العدو ، وحطم رسول الله الأصنام ، وأزال الصور من حول الكعبة وعرف فى الأنصار مخافة فقال لهم : المحيا محياكم والممات مماتكم .

وأذن بلال فوق الكعبة ، وصلى الناس خلف الرسول ،

وقال قولته الخالدة : « يا أيها الناس أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك منها دما ، أو يعضد منها شجراً ، ولم تحلل لأحد من قبلى ولا تحلل لأحد يكون بعدى ، ولم تحل لى إلا هذه الساعة ثم رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

وأقام رسول الله بمكة . وقد أرسل السرايا إلى القبائل تحطم الأصنام وتهدم الأوثان . أرسل خالداً وأرسل علياً . وعلم رسول الله حين مقامه بمكة أن « حنين » تستعد لغزو مكة فبادرهم في اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، تحركوا زاحفين إلى حنين ، وقد ملأهم الإعجاب بالكثرة والمدد ، فوصلوا مع المساء فنزلوا على أبوابها حتى أصبح الصباح ، وما لبثوا أن انحدروا حتى واجهتهم عاصفة من النبال في عماية الصبح ، فاختلط أمرهم وانفرجت صفوفهم . وانقلبوا فارين ورسول الله في مؤخرة الجيش . وقد رأى هذه الجموع وقد أخذت تفر وتنحدر من حوله يميناً وشمالا . وهو واقف على فرسه ، ثابت كالطود لا يريم ، يردد في رباطة جأش قولته البليغة .

« أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » . وأدلى إليه العباس وأخذ يلقي إليه أن ينادي : يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . أن محمد حي

فهلموا ، ورددت جنبات صوته أنحاء الوادى وأجاب المسلمون عن جانب :

« لبيك . لبيك » .

وسمع المسلمون كلمة البيعة فعادوا فى قوة واستبسال . ونزل بعضهم عن أفراسهم . وشدوا على العدو فى عنف ، وقوة . واستماتوا ، وقد اشتد عودهم فلم يستطع خصومهم أن يثبتوا على المقاومة طويلا .

ونظر رسول الله فرأى رجاله يقبضون على ناصية الموقف ، ونادى : الآن حمى الوطيس . إن الله لا يخلف رسوله وعده .

« ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

واستشهد عدد ضخم من المسلمين فى هذه الغزاة ، وغنم المسلمون وأسروا أكثر مما غنموا فى أى معركة من قبل .

ثم زحف رسول الله وأصحابه إلى الطائف يحاصرون ثقيفاً ويضيقون عليها الخناق : ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ،

فلما امتنعت عن التسليم هدد رسول الله بقطع كروم الطائف وحرقها فلما أجمع المسلمون أمرهم تراجعت ثقيف وبعثت إلى رسـول الله تسأله بالرحم أن يمهلهم فرجع رسول الله بجيشه . وقد أزمع أن يعود إلى الطائف ما انتهت الأشهر الحرم .

ووزع رسول الله الغنائم بعد أن احتجز خمس الله ورسوله ، وما أن انتهى منها حتى جاء وفد «هوازن» مسلمين يسألون رسول الله أموالهم ونساءهم . وقالوا : يارسول الله إن فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللواتى يكفلنك فاستمع إليهم رسول الله وسألهم : أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يارسـول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا . بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا .

فقال : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم : وإذا ما أنا صليت الظهر فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا .

فلما انفتل من صلاته قالوا . فرد عليهم بمقالته برد ماله وما لبنى عبد المطلب فقالت المهاجرن على الأثر : وما كان لنا فهو لرسول الله وقالت الأنصار مثل ذلك .

ووقف رسول الله يقسم الفيء والمسلمون يتصايحون حوله وقد أخذوا ردائه فصاح فيهم : ردوا إلى ردائى أيها الناس . فوالله لو أن لى بعدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم ثم ما الفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا .

وأخذ رسول الله بعد ذلك بوزع الفيء ، ويعطى المؤلفة قلوبهم فى سخاء وكرم ، حتى بلغ عطاء أبا سفيان ومعاوية مائتى من الإبل . وأعطى عباس بن مرداس فاستقل العطاء فقال . اذهبوا به فاقطعوا عنى لسانه .

وتحدثت الأنصار عن عطاء رسول الله وقالوا : لقى والله قومه . وبلغت مقالتهم رسول الله فنادى سعد ابن عبادة . وقال ماقالة بلغتنى عنكم ياسعد : أجمع لى قومك فى الحظيرة . فلما اجتمعوا سعى رسول الله إليهم وخاطبهم :

يامعشر الأنصار ماقالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها فى أنفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله . وعالة فأغناكم الله . وأعداء فألف بين قلوبكم . أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم . أتيتنا مكذبا فصدقناك . ومخذولا فنصرناك . وطريدا فآويناك . وعائلا فآسيناك

أوجدتم يامعشر الأنصار من لماعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم . ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرؤا من الأنصار . ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار . وأبناء أبناء الأنصار .

فما بلغ رسول الله من قوله هذا حتى فاضت العيون واخضلت اللحى بالدمع الهتون . وقال القوم . رضينا برسول الله قسما وحظاً .

غزى رسول الله بعد ذلك لغزو الروم إذ نما إليه تفكيرها فى غزو حدود العرب . فأخذ رسول الله يستعد لها وهو العليم ببعد الشقة وشدة القيظ وجدب الصحراء وقلة الزاد . وقد دعى رسول الله المؤمنين فلبوا ندائه وجاءوا بأنفسهم وبما لديهم ولم يصرفهم عن الغزاة شدة قيظ ولا صحراء .

وتخلف عن رسول الله فريق من المنافقين ، ممن بعدت عليهم الشقة ، وممن قالوا لا تنفروا فى الحر . وممن قالوا ائذن لى ولا تفتنى .

وانتهز بعض المنافقين الفرصة ليخذلوا المسلمين عن الغزاة ويحرضوهم على التخلف . وعلم رسول الله أمر ندوة سويلم اليهودى وأمر من يجتمعون على التخلف . فأرسل إليهم طلحة بن عبيدالله فحرق عليهم دارهم .

وأنفق عثمان فى تجهيز جيش العسرة ألف دينار . وأنفق

غيره من المسلمين قدر ما استطاعوا . وفى الوقت الذى يجىء فيه المعذرون ليستأذنوا رسول الله فى التخلف ، يجىء الفقراء يريدون أن يحملهم النبى ، فيرد بعضكم وهو أسيف حزين . ويقول لهم : « لا أجد ما أحملكم عليه » فيتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ، أن لا يجدوا ما ينفقون .

وزحف جيش العسرة فى ثلاثين ألف من المسلمين . وسار الجيش فى رعاية الله قاصداً « تبوك » فما أن بلغها حتى كان الروم قد انسحبوا عندما علموا بمسيره ، فأمّن الحدود وعاهد أهلها . وعاد وقد تكشف له فى حال عودته أمر المنافقين فى آيات من القرآن ، وصف فيها الحق لرسوله أصنافهم وأعمالهم فكان عليهم شديداً بعد عودته ، حتى أنه أحرق مسجد الضرار بعد أن استمهل أصحابه الذين دعوه ليصلى به قبل ظعنه إلى تبوك .

وظل رسول الله بعد ذلك يستقبل الوفود تأتى مبايعه إياه من أطراف الجزيرة حتى سمى عامها ذاك بعام الوفود . وحج أبا بكر بالناس ، ومضى فى عقبه « على » موفداً من رسول الله يتلو على المسلمين فى الموسم صدراً من سورة (براءة) فلا يحج بعد العام

مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته .

ومن ثم لم يعد للمشركين بمكة مقام « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » وتتعاقب الوفود ولها من بعد حديث .

ثم أذن رسول الله فى القبائل بالحج الأكبر . وسار المسلمون فى الخامس والعشرين من ذى القعدة من السنة العاشرة من الهجرة وقد تجمع له مائة ألف مسلم من شبه الجزيرة متطلعين إلى بيت الله الحرام ، ملبين محرمين . فلما أن اجتمعوا فى عرفات خطبهم رسول الله خطبته الجامعة ، وأنزل الله قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا » فلما سمعها أبا بكر أنشج يبكى والرسول يناديه أن على رسلك يا أبا بكر . وقد وعى الحصيف الذكى أن رسالة النبى قد تمت وأن يوم لقاء ربه قد دنى .

ورجع رسول الله إلى المدينة بعد أن أتم الله عليه نعمة الحج الأكبر ، وبعد أن شهدت هذه الأفواج الضخمة معه هذا الموسم ،

وأخذ يمدّ العدة لغزو الروم ، وجعل أسامة بن زيد على رأس الجيش ، وخرج أسامة إلى الجرف يتجهز وأصحابه . وإذا برسول الله يمرض فيطول مرضه ويضطرب الأمر بالمسلمين ، ثم ينتقل إلى بيت عائشة ، وتشتد به الحمى ، ويخرج إلى المسجد معصبا ويقول للناس . إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده فاختار ما عند الله . إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى وأكرم يداً من أبى بكر . وإنى لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا « انفذوا بعث أسامة » .

يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد . وأنهم كانوا عيبتى التى آويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم . »

ثم ثقل به المرض وقال : مروا أبا بكر فليصلى بالناس .

ولما سمع عمر يكبر بصوته الجهير ، قال : فأين أبو بكر . يأبى الله ذلك والمسلمون .

وقالت فاطمة لما اشتد به المرض : واكرب أبتاه . فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم .

ثم جاء وعد الله . ووعده الحق . فكان يرفع رأسه ويقول : اللهم أعنى على سكرات الموت

وشخص ببصره وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة .

وقالت عائشة : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ولحق رسول الله بالرفيق الأعلى وجاء أبا بكر فنظر إلى وجه رسول الله وهو مسجى فى برده وقبله : وقال :

بأبى أنت وأمى يارسول الله . ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً .

صورة وصفية

كان رسول الله متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة . لا يتكلم عن غير حاجة . طويل السكوت وكان سكوته على أربع : الحلم والحذر والتقدير والتفكير . يخطو تكفؤا ويمشى هونا . إذا التفت التفت جميعاً . خافض الطرف . أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره على وجه أحد .

إذا أشار أشار بكفه كلها . وإذا تعجب قلبها . وإذا تحدث اتصل بها وضرب بإبهامه اليمنى وراحته اليسرى . وإذا غضب اعترض وأشاح ، وإذا فرح غضّ طرفه . جل ضحكه التبسم . ويفتر عن مثل حب الغمام .

يسرع فى مشيته . يرفع يديه حين يدعو حتى يرى بياض إبطه . يتلفت بكل جسمه ، يغضب كأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان ، ينام وقلبه مستيقظ .

الانسان الكامل

جمع الله لهذه الشخصية من كريم التوارث . ومن بليغ الموهبة . ومن فيض الوحى والهدى ما جعلها الشخصية الأولى فى تاريخ الإنسانية .

« محمد بن عبد الله » هو أنموذج الإنسان الكامل . ورسالته مثال رفيع فى الخير والجمال والحق للدنيا جميعا . ومنذ بزغ فجر هذه الرسالة وأذن صلى الله عليه وسلم بها . وأمره وأمرها متصل بكل أحداث الدنيا وتقلباتها فى الشرق والغرب .

كانت البشرية قبل أن يبعث صلى الله عليه وسلم تمضى فى طريق قد طال والتوى وأغلس . فما أن أرسله الحق بالحق اعتدل هذا الطريق واستوى وأضاء . وارتقت البشرية به ، ويدعونه مرتبة أخرى إلى الإنسانية . ومن ذلك اليوم إلى اليوم ، وإلى الغد البعيد ستظل الإنسانية كلما التوى بها الطرق أو دجى أو أصابتها الحيرة تلتمس فى تاريخه وهديه ورسالته النور والخير والحق .

وتلتمس الأمم والشعوب تجارب أمة تكونت فى ربع قرن وسيطرت على الدنيا فى أقل من قرن .

يلتمس الزعماء تجارب القائد ، الذى ساس القبائل فصرف عنها وحشية الجاهلية . وأمدها بالإيمان والعدل ، يلتمس طلاب الرجولة والعزة وتكامل الشخصية الإنسانية ، كل صفات الحب والوفاء والصدق والقوة فى شمائله وتصرفاته .

هذه الحياة القصيرة فى عدد سنيها ، والتى لم تتجاوز منذ البعث أربع وعشرين عاما من أعوام الناس ، وقد غيرت وجه العالم تغييراً لا يزال له جدته ، تزيده القرون المتوالية قوة وامتداداً وتزداد به الدنيا اقتناعا وإيمانا .

غيرت حياة محمد ودعوته مقاييس الحياة ، وعدلت اتجاه البشرية . وأمدت البشرية بفيضها الإنسانى الضخم الذى مازال يدفعها إلى اليوم ، وإلى الأجيال الطويلة المدى من بعد نحو الحق والخير .

ولا شك أن حياة محمد بن عبد الله قبل أن يأذن الله له بالرسالة ، كانت حياة « إنسانية » تمتاز عن حيوات من حوله بالنقاء

والعزلة ، ولا يحفظ التاريخ له فيها نشاطا أو حركة أو أثراً ، ولكنها كانت على كل حال حياة غريبة أشد الغرابة فى جنوحها عن الاضطراب فى هذه البيئة الوثنية الحمقاء . كانت مزيجا من الأمانة والاعتكاف ، وكانت صورة من الترقب والانتظار ، وكانت النفس الصافية الطاهرة العفة التى اصطنعها الله لنفسه ، وصنعها على عينه ، وقد تكاملت وأعدت . ونشأت كالزهرة العاطرة من الأصل الطاهر العف . بين هذه الأنفاس المحرقة من الضلال والإثم كما ينبت الورد من الأشواك .

هذه هى النفس التى أعدها الحق لتطوى صفحة الظلم والضلال وتنشر صفحة النور والتوحيد .

وتقوم حياته قبل بعثه على مواقف أربعة : الرحلة والتجارة . والأمانة والذكاء . وحرب الفجار . وحلف الفضول .

أما الرحلة والتجارة فهما مرتبطان يجمعان بين معرفة الناس والبلاد والابتلاء بأخلاق الناس وطبائعهم . والقدرة فى الحكم على الأمور . وسداد التقدير للتصرفات ، والفهم للاوضاع . وتلك عدة أصحاب الرسالات فى فهم طبائع الناس واكتناه سرائرهم ودراسة نفسياتهم .

وقد برزت نتائج هذه « الدعامات » فى حياته بعد الدعوة بأجلى معانيها فقد عرف بالفراسة النافذة والفهم الدقيق لما يدور فى خواطر الناس . وعرف بالقدرة على سير أغوارهم واكتناه دخائلهم ، أليس هو القائل : الناس كإبل ، المائة لا تجد فيها راحلة .

أليس هو الذى كان يخاطب كل قبيلة بلهجتها ولسانها . أليس هو القائل : خاطبوا الناس على قدرعقولهم . ومايهضون به من أمور

وقد عرف بالاستنتاج اللماح وسرعة البديهة ومعرفة أقدار الناس ، وما يصلحون له وما يحسنون أدائه .

* * *

أما الأمانة والذكاء فهما عدة المصلح وقائد الرأى يكون بهما محبوباً مهيبا . الأمانة مبعث الحب والذكاء مبعث المهابة .
وقد برز هذا المعنى فى حياته جليا واضحا يوم حكمته القبائل المختلفة على نفسها فى أمر الحجر الأسود ، وقالوا : نحتكم لأول قادم . فلما أشرف . قالوا : هذا هو الأمين . قد رضينا به حكما . فحكم لهم فى أمر الحجر بما أرضاهم ، وصرف خصومتهم فى سرعة

خاطر ، وحضور بديهة ، وتصريف للامر . عجزت عنه هذه القبائل مجتمعة . وعجز عنه كل زعيم من زعمائها منفرداً .

واشترك محمد قبل البعثة فى حرب الفجار : وقد عرف عنه أنه كان فى أول هذه الحرب التى امتدت أكثر من ثلاث أعوام يحمل السهام إلى أعمامه بعد أن يجمعها من مساقط العدو ، ثم أتيح له أن يشترك بعد فى إلقائها وقذف أعدائه بها .

واشترك فى « حلف الفضول » الذى تماهدت فيه قريش على نصرة المظلوم حتى يؤدى حقه ، وكان يذكره فيقول : ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لأجبت » وهذه الركيزة الرابعة تمثل جانب الوفاء والإخلاص ، الذى أخذ صبغته العلمية يوم بركت القصواء فى ثنية المزار بالحديبية فقال : إنما حبسها حابس الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . . » .

* * *

وهكذا يتبين أن فترة ما قبل البعثة فى حياة محمد — وهى الفترة التى امتدت منذ وعى الصبا الذى يبرز ويتكامل —

عادة — فى سن الخامسة عشرة . وينتقل بأدوار الشباب والفتوة إلى الرجولة على حدود الأربعين ، فى هذه الفترة برزت دعائم الكمال فى شخصيته الإنسانية على وجهها الممتاز .

خبرة ودراسة للناس من الرحلة والتجارة . وإعجاب وتقدير من للذكاء والأمانة وجهاد ونضال ودربة على الحرب والقتال ، ثم وفاء ونجدة .

ولو لم يكن فى حياته قبل البعثة غير هذه الدعائم الأربع لكفاها دليل على إرهاصات الشخصية الممتازة التى تتأهب لقيادة الإنسانية وعلائم الرجولة الكاملة التى تتأهل لحمل رسالة إصلاحية عظمى . والتى تأتى من بعد بالأعاجيب مما يصل إلى ذروة المثل العليا التى تظل نبراساً يحتذى على طول الزمان .

* * *

تلك « علامات » الرجل قبل الدعوة .

وهذه « مظاهر » محمد الإنسان : صاحب الرسالة والوحى والمصلح الاجتماعى .

برز فى نواحى البطولة . وأخذت الرسالة مجامع قلبه . فأنفق فيها وقته وحياته وعاش لها .

برز فى الرجولة والعبادة والمشاركة الوجدانية والاجتماعية .
وبرز فى السياسة والقيادة الحربية والزعامة الشعبية .

استنبىء على رأس الأربعين : سن الرجولة والكمال ، كى لا تطغى الرسالة على جوانبه الإنسانية . ولا يسلبه الوحى خصائصه الشخصية .

جمع الله له الوحى الربانى والاجتهاد الإنسانى .

اصطنعه الله للدعوة . فعاش لها ولم يأخذ عليها أجراً « قل لا أسألكم عليه أجراً » .

عمل بيده فلم يعش كلاً . وتزوج فنفى عن دعوته الرهبانية ، أوتى صفاء الذهن . واعتدال المزاج إلى قوة الجسم وحسن الهيئة .

جمع الله له بين الثقة بالنفس . والشجاعة . والتواضع . وقوة البيان وظاهره بعد ذلك بالوحى وتأييد السماء .

أعطاه الله خمسا لم تعط لنبى من قبله « نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد من

قبلى ، وأعطيت الشفاعة وكان النبى يرسل لأهله خاصة وأرسلت إلى الناس كافة » .

وجمع الله له بين اليتم والفقر فصرف عنه بهما شر الترف الذى يحطم عزائم الرجال ، وجعله مثلا للفقراء فلا يرون فى الغنى مقياساً لمرضاة الله . وعافاه من تدليل الطفولة وشوائب الثراء . ولطالما قال : اللهم ارزقنى كفافا . وارزق آل محمد كفافا . اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين . وقال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

اصطفاه الله ، وأمر المسلمين بالصلاة عليه ، وأخذ العهد على الأنبياء بالإيمان به ونصرته . وأقسم الحق تبارك وتعالى بحياته : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » .

* * *

وكانت الهجرة فيصلا بين الواقع المرير لثلاثة عشر عاما من الاضطهاد والنضال والمقاومة ، وبين حاضر جديد تأذن الله فيه للمجاهدين بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير .

إن فى الهجرة وحدها « شمائل » لمحمد تزهو على التاريخ ،

وما طوت صفحاته من أحداث البطولة . وأن فى بقاء الرسـول بمكة بعد أن أذن لأصحابه بالهجرة ، ورقب جموعهم وهى تنحدر إلى الشمال فتمضى فى غفلات الليل ، وتحت أجنحة الظلام تطوى هذه القفار لا تبالى ما تلاقى من آلام السرى ومتاعب الاختفاء ولا تسأل عما تركت وراءها فى مكة من أهل ، وما خلفت من أبناء أو أموال ، وهى فرحة مشرقة يزيدها هذا الفرح قوة على المضى إلى (يثرب) التى آوت ونصرت .

إن فى بقاء الرسول فى مكة حتى تنتهى هذه الأفواج إلى مقرها وحتى لا يبقى فى مكة من المؤمنين المجاهدين إلا ثلاثة . لمثل من أمثلة القيادة الحازمة فى رجولتها وشجاعتها وصبرها قل أن يدانى .

* **

« قائد دعوة » يواجه الخصوم العتاة بنفسه ، من غير أنصار ، ويظل باقياً فى مكة مقيماً لا يبرح حتى يسبقه كل أنصاره إلى المدينة . وهو لا يمضى حتى يطمئن إلى أنه قد أسلم الكتيبة المؤمنة إلى مكانها المأمون .

إن حادث الهجرة هو المرحلة الثانية للدعوة الإسلامية

أنتقلت به من الـكلام والاقناع والصـبر والاحمال والريث والترقب والمداراة والتقية ؛ إلى المـكاشفة والمواجهة وإلى المقاومة والنضال وإلى بذل الدماء رخيصة فى سبيل تركيز الراية ، وتوسيد النظام .

ولا يقل موقف النبى هذا فى أول المرحلة الثانية ، من موقفه فى أول المرحلة الأولى :

ذلك هو حادث الحوار بينه وبين عمه أبو طالب ، حين أزعجه القوم بأمر دعوة الرسول ، وحين هاجت قريش وماجت ، وعندما انـكشف بهـا ما وراء الدعوة من صراع بين باطلهم المتهافت وحقه الخالد ، فجاءوا إليه يطلبون منه أن يضع حداً لأمر محمد ، ويعرضون عليه العروض ، ثم يهددونه أشد تهديد ، وما يلبث أبو طالب أن يسعى إلى رسول الله يحدثه وهو يظن أنه سينال منه ما يريد ، وأنه بالغ أعماق نفسه بما يلقى إليه حتى ليقول له فى ختام كلامه : « إن قومك انذرونى فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق » .

وتقف الدنيا كلها فى خشوع ورهبة تنتظر ما يقول النبى

ويقول محمد : «والله يا عم، لو وضعوا الشمس عن يمينى والقمر عن يسارى على أن أدع هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه : ما تركته » .

وينظر أبو طالب إلى رسول الله فتأخذه الرهبة وتنزع هذه الألفاظ القوية الصادقة كل أثر فى نفسه مما قالت له قريش . فما يلبث أن يقول فى حماس :

إذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

صلى الله عليه وسلم .

شمائل محمد

« كأنه وهو فرد في جلالتـه
في عسكر حين تلقاه وفي حشم »
البوصيري

تـكاملت الشخصية الإنسانية فى شمائل محمد أوفى ماتتكامل فى إنسان . وبرزت فيه « الرجولة » التى تتسم بالزهد والتواضع والشجاعة والوفاء ، وعرف بالربانية المؤمنة . فـكان « عابداً » يقف بين يدى مولاه حتى تتورم قدماه . وكان « اجتماعياً » شارك الناس فى سرائهم وضرائهم .وأحبهمَ وسهر عليهم اخوة وأتباعا ، أزواجاً وأبناء ، فى إيثار ووفاء .

وعرف بالزعامة فـكان مصلحاً جمع إلى ضبط النفس قوة التأثير . وكان فعالا أكثر منه قوالا . لم يستغفل فى مكيدة . ولم ينم عن مهمته لحظة من ليل أو نهار . واتسم بالسياسة فـكان مثلا للـكياسة والدهاء دون تـكبر أو طغيان . فعقد المعاهدات وبعث البعوث .

وكان قائداً عرف بالبطولة الحربية والشجاعة فقاتل بيده ، وكان إذا اشتد اليأس أقرب الناس إلى العدو .

ووصـل إلى ذروة البلاغة فى القول فـكان « محدثاً »

بارعاً فصيح اللسان واضح البيان ، يقول أوضح القول فى أوجز عبارة .

وبهذه الشمائل جميعاً كان المثل الكامل للشخصية الإنسانية الفردية ، وكان المثل الأعلى للزعامة والقيادة فى سيرته وشمائله يجد الزعماء والمحاربون والساسة والمفكرون عنده خلاصة الدراسات التجريبية للإنسان الكامل .

١ — الرجل

اتسم بالزهد فى الدنيا . واكتفاءه بالقليل . ولكنه ليس زهد الضعفاء . أو زهد العجز والقصور . وإنما زهد المالك فيما يملك ابتغاء مرضاة الله .

وقد أثر عنه قوله : مالى وللدنيا . إنما أنا والدنيا كراكب استظل بظل شجرة ثم مضى وتركها .

ولقد أثر عنه أنه خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير وكان يرضى بالكفاف فى المأكل والغليظ فى الملبس . وينام على وسادة أدم حشوها ليف . بحسبه بضع لقيمات يقمن أوده . وأحياناً يبيت طاوياً ، وكثيراً ماقضى وأهله الأيام ليس لهم طعام إلا الخبز والماء .

قالت عائشة لعروة : يا ابن أخى إننا كنا ننظر الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ما أوقدت فى بيت رسول الله نار . فقال يا خالة : ما كان عيشكم . قالت : التمر والماء .

وقد روى أنه ماأكل أكلتين فى يوم واحد ، إلا كانت أحداها تمراً وما شبع من خبز الشعير يومين متتالين ، وكان مع ذلك كله يعظم النعمة ، وإن دقت ولا يذم شيئاً .

ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد .

هذه هى الزعامة الفقيرة والقيادة التى لا تقيم سلطانها وصولجانها على دعامات واهية من المظاهر البراقة ولا تقيم مآدبها وولائمها على الوان الأطعمة المختلفة .

وحياة الرسول لم تكن فى الواقع حياة فردية ، وإنما هى حياة توجيهية تقضى بالأمر على وجه من وجوهه ، لأنها تريد أن تكون وضعاً من أوضاع الكيان الإنسانى فى الجماعة الإسلامية .

ولذلك عرف فى عبارته روح التوجيه والتنفيذ ، ولم يكن هذا « الفقر » أو هذا « القصد » فى أمر المطعم والملبس وفراش النوم إلا رغبة فى إقرار طبيعة خشنة صاعدة ، لا يزعجها نقص أمور المطعم والمشرب والملبس فى ظرف من الظروف .

وكان إلى هذا القصد متميزاً بالجود والسخاء . أضف إلى ذلك روح المحاسبة والتقدير التى تبرز عند استقبال مطعم شهى .

دخل المسجد فوجد أبا بكر وعمر فقال . ما أخرجكما . قالا : الجوع . فقال رسول الله : وأنا أخرجنى الجوع . فذهبوا إلى أبى الهيثم التيهان الأنصارى . فقام فذبح لهم شاة واستعذب لهم ماء . ثم أتى بذلك الطعام والماء فأكلوا منه وشربوا .

فقال رسول الله : لتسئلن عن نعيم هذا اليوم . قال هذا ومع ذلك فإنه لم يمتنع عن رد سبايا هوازن وكانوا ستة آلاف .

وكان طعام النبى ليلة عرســه من أم سلمة لا يزيد عن شىء من الشعير أخذته أم سلمة فطحنته ثم عقدته فى البرمة ، وأخذت الــكعبة فأدمته .

وعن أنس رضى الله عنه . أنه أهدى إلى رسول الله طبق من رطب فجثا على ركبتيه . فأخذ يناولنى قبضة قبضة يرسل بها إلى نسائه ، وأخذ قبضة منها فأكلها ، وأخذ يلقى النوى بشماله فمرت به داجنة فناولها فأكلت .

ويقول : أخفت فى الله وما يخاف أحد . وأوذيت فى الله

وما يؤذى أحد . ولقد أتت على ثلاثون ما بين يوم وليلة . مالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه أبط بلال .

ومن حديث الطعام عند رسول الله عبرة أخرى فهذا هو يبيت على الطوى . ويربط بطنه من الجوع ويصبح الصباح فيسأل أهله : أعندكم شىء . فإن قالوا : لا صام يومه .

ولقد جاءه الضيف فأرسل يسأل فى بيوت زوجاته التسع ، فلم يجد عند إحداها شيئاً ، فوكل أمره إلى أصحابه . ولقد ضاقت زوجات النبى بهذا الوضع ، وطلبن النفقة فنزل القرآن يفاصلهن المقام مع رسول الله « إن كنتن تردن الحيـاة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا » والمتاع هنا هو متاع الطلاق .

تلك أولى دعائم الرجولة عند النبى ، لم يكن للطعام والشراب عنده ذلك الخطر الذى يمطية الناس إياه فيتحكم فى أقدارهم .

* * *

واتسم باليسر والبساطة فى لقاء الأمور ، وفى توجيهها .

إذا خير بين أمرين اختار أيسرهما مالم يكن إثماً . يمزح ويتفكه ولا يقول إلا حقاً .

ولقد برزت بساطته فى كل شىء ، فقد كان الرسول يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته . وكان إذا تصدق وضع الصدقة فى يد السائل ، وكان يركب ويردف خلفه .

وجاءه الرجل وهو يمشى ومعه دابته . فقال للنبى : اركب . وتأخر عن حماره . فقال الرسول له : أنت أحق بصدر دابتك منى إلا أن تجعله لى . فلما قال له الرجل إنى جعلته لك ركب .

وليست هذه البساطة واليسر إلا مظهراً صادقا من مظاهر التواضع فقد عرف الرسول بتلطفه مع الأطفال والصغار . وعرف بالصبر على الجفوة للغريب فى منطقه ومسألته . ولم يكن تبعاً لذلك يواجه أحداً بما يكره . ويجيب دعوة الداعى ، ويعود المريض ، ويقبل العذر ويتجاوز عن المسىء . وله فى كل حالة من هذه الحالات أحداث تروى ، وليس له فيها كلام يقال . فقد كانت حياته تجريبية وأهدافه توجيهية وأسلوبه تنفيذياً محضاً .

يعطى من منعه ويصل من قطعه ويبذل لمن حرمه ، ويغضى طرفه عن الأذى . وكان أجود من الريح المرسلة

قال له أحد الوافدين : أنت سيدنا . قال السيد الله : قولوا قولكم ولا تستجرينكم الشيطان .

إذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس ، وكان يمد طرف ردائه لحليمة لتجلس عليه . ويلقى وسادته لضيفه ، ويجلس ، هو على الأرض . وكانت له حصير يحتجزه فى الليل ، فيصلى فيه ، ويبسطه بالنهار فيجلس عليه .

ذلك هو محمد الذى لم تعرف عنه مهانة ولا جفاء ، بل الدماثة واليسر ، جبل على الخلق الكريم بالهبة الآلهية ، والرياضة النفسية ، يحلب شاته ويخصف نعله ، ويحب التيمن فى كل شىء ، فى طهوره وفى ترجله وفى تنقله .

* * *

دخل عليه الرجل يرجف فقال له خفض عليك . إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

كان بيته حجرات واطئة ضيقة من اللبن ، بينها حواجز من جريد النخل .

وعرف بالتفكهه فلم يكن جهماً يحمل بضاعته وكان الناس يظنون حمل البضاعة غورة .

وعرف يتلطفه مع الأطفال وكان يدمع لموتهم ويقول : إنما هى رحمة يضعها الله فى قلب من يشاء من عباده .

يكره التميز والترفع عن أصحابه وأتباعه ، فلم يكن يعرفه الغريب الوافد إلى المسجد حتى يسأل عنه

عرف قدره كل من عرفه . عندما دخل المسجد والقبائل مختلفة قالوا هذا الأمين . وعندما وقف على الصفا قال : لو اخبرتم أن خيلا بسفح هذا الوادى تجرى أكنتم مصدق . قالوا : ما جربنا عليك كذبا .

وقالت له السيدة « خديجة » عندما فجأه الحق فى غار حراء فقفل ترجف بوادره : « والله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف . وتعين على نوائب الحق » .

ولم يغضب رسول الله إلا للحق . وما غضب لنفسه مرة ولا انتصر لها وعند ما غضب على السيدة عائشة بعد أن استأمنها على

العبد فهرب منها وقال لها : قطع الله يدك . عاد فرفع يده إلى السماء ودعا ربه: اللهم انى بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر فايما مؤمن أو مؤمنة دعوت عليه بدعوة فاجعلها له رحمة .

لم يعرف عنه قط الغضب فى أمر من أمور نفسه . ولم يرغاضبا إلا فى قليل من الأمر . غضب يوم مقتل حمزة ، وغضب يوم عاد من حنين ، وأخذ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفوا رداءه فوقف وقال : أعطونى ردائى فلو كان لى عدد هذه القضاة نعما ، لقسمته بينكم ثم لاتجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا .

وهو فى غضبه يملك تعبيره فلا ينفلت منه الكلام : غضب يوم حبس عثمان . ووقف تحت شجرة الرضوان وقال : بايعونى على أن نناجز القوم !

وكان غضبه عليه السلام فيما يتصل بالدعوة لا فيما يتصل بشخصه الكريم ، لم يغضب على الرجل الذى قال له : يامحمد أقض حق فأنتم معاشر بنى عبد المطلب مطل ، ولم يغضب حين جذبه الإعرابى من برده النجرانى الغليظ الحاشية حتى أثر فى عنقه الشريف .

ولم يغضب من الرجل الذى قال له بعد عطية اعطاه أياها : هل أحسنت إليك قال : لا . ولا أجملت .

وكان يتوضأ ليزول غضبه ، ويجلس إذا كان قائماً ، ويقوم إذا كان قاعداً . ويوصى بذلك .

* * *

وعرف إلى ذلك كله بالرحمة التى لا تقتصر على بنى الإنسان فحسب ، بل التى تشمل كل حى .

مر وهو فى طريقه إلى فتح مكة على كلبة تهر على أولادها ، وهن من حولها يسترضعنها ، فأمر جميل بن سراقة أن يقوم حذاءها حتى يمر الجيش فلا يعرض لها أحد .

وبكى يوم مات إبراهيم وقال : يا إبراهيم انا لن نغنى عنك من الله شيئاً . وانا يا ابراهيم لمحزونون تبكى العين ويحزن القلب ولا تقول مايسخط الرب .

وكان . فى كل أمره وحاله . مشرق الروح موصول القلب بربه ، يقول ابن شهاب : أن النبى كان يأتى له بالباكورة من

الفاكهة أو غيرها فيقبلها ويضعها على عينيه ويقول : « اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره » .

وكان لا يزعجه الأمر الجلل لثقته بربه ، رمى الكفار التراب على رأسه الشريف فدخل إلى بيته . وأخذت فاطمة تغسله عنه وهى تبكى وهو يقول : لا تبكى يابنية . إن الله مانع أباك .

وكان يعرف من أمره ، خطأه وصوابه ، فلا يرى مندفعاً فى اتجاه أو رأى دون أن يراجع نفسه المرة بعد المرة .

قال فى حجة الوداع ، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ماسقت الهدى ، وقال فى عمرة القضاء : فعلت اليوم أمراً ليتنى لم أفعله ، دخلت البيت فعسى الرجل من أمتى لا يقدر أن يدخله ، فيكون فى نفسه حزازة ، وإنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول .

وكان إلى ذلك كله ، نظيفاً جميل الملبس ، لايرى إلا فى أكمل مظهر ، فلما سئل فى ذلك قال : إن الله يحب من أحدكم إذا خرج لاخوانه أن يتجمل لهم .

ويقول أحد أصحاب الرسول ، اننا كنا نعرف خروج النبي بروح الطيب .

ويقول انس بن مالك صحبت رسول الله عشر سنين وشممت العطر كله فلم أشم نكهة أطيب من نكهة رسول الله ، ما رأيت شيئاً أحسن من النبي ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من النبي ، كأن الأرض تطوى له ، وانا لنجهد وهو غير مكترث .

ولم يبلغ إنسان ولا زعيم نهاية الوفاء كما بلغه رسول الله حين نادى في الناس قبل أن يقبض : أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد مني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت منه مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء فهي ليست من شأني .

ولقد جاهد رسول الله في سبيل رزقه قبل الدعوة بالتجارة ، ثم عاش في مال زوجته خديجة بعد البعثة ينفقه في الدعوة ، ثم يسر الله له الأمر من بعد فأثر عند قوله « وجعل رزقي تحت ظل رمحي » .

٢ — العابد

« قل إن صلاتى ونسكى . ومحياى
ومماتى لله رب العالمين » .

لم تجتمع فى مصلح ولا قائد هذه الصفات التى تجمعت فى محمد فقد كان صلى الله عليه وسلم نموذجا صادقا كاملا للرسالة التى أرسل بها ، فكان عابداً يقوم الليل حتى تتورم قدماه . ويصوم من الشهر حتى يكاد لا يفطر .

ويقول إن لبدنك عليك حقا . ولربك عليك حقا . ولأهلك عليك حقا . . وهى حقوق منفصلة لا يغفل فى توزيعها ولا يجور حق منها على الآخر .

وقد وصل « محمد » فى جانب (العبادة) إلى أرق درجات العبّاد المؤمنين حتى لتنام عيناه ولا ينام قلبه . وإذا نام يوقظوه حتى يكون هو الذى يستيقظ ، وقد ملكت عليه الدعوة حواسه وقلبه فصبر على الجاهل والمتعنت .

ومن خشيته لربه وشدة خوفه من عظمته نسب كل شيء إليه ووصل نفسه به في كل أمره . وكل حركاته . يذكره عندما يستيقظ وعند ما ينام . وعندما يمشي . وعندما يخرج من منزله . وعندما يدخل المسجد وعندما يعود . وعندما يسافر وعندما يرجع ، وعندما يلبس .

قام الليل حتى تفطرت قدماه . وقد سئل لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً . فإذا صلى بالناس خفف صلاته حتى تكون أخف صلاة . فإذا صلى بنفسه أطال صلاته .

ويقول عبد الله بن مسعود : « صليت مع النبي ليلة فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء . قيل وما هممت ؟ قال هممت أن أجلس وأدعه .

ويقول عبد الله حذيفة بن اليمان : « صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح بالبقرة . فقلت : يركع بعد المائة . ثم مضى . فقلت : يصلي بها في ركعة . فمضى فقلت : يركع بها . ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مرسلا فإذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر بتعوذ تعوذ : ثم ركع

لجمل يقول : سبحان ربى العظيم . فكان ركوعه نحواً من قيامه . ثم قال : سمع الله لمن حمده . ربنا لك الحمد . ثم قام قياما طويلا قريباً مما ركع . ثم سجد فقال : سبحان ربى الأعلى . فكان سجوده قريباً من قيامه « رواه مسلم » .

ويصلى رسول الله لربه ويقوم الليل إلا قليلا . وإذا حزبه أمر أكثر من الصلاة . وإذا جاءه من يطلب شيئاً قصر من صلاته .

* * *

وهو صلى الله عليه وسلم يعرف قدر ربه. فيقول : شيبتنى هود واخواتها وبربط كل من له صلة به ، بموقفه منه عند ربه فيقول : يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالى . لا أغنى عنك من الله شيئا » ويثق بالله فى مواطن الشدة والبأس . فلا تغره المظاهر . يقول له أبوبكر وهو فى الغار : لو نظروا تحت أقدامهم يارسول الله لرأونا فيقول : يا أبا بكر . ما ظنك باثنين الله ثالثهما . . لا تحزن إن الله معنا .

ويشكر ربه فى مواطن النصر ، فيدخل مكة ساجداً على

بعيره ، وهو يردد : لا إله إلا الله . نصر عبده وعز جنده وخذل الأحزاب وحده .

ويعود من السفر أو الغزوة فيتجه إلى المسجد فيصلى لله ركعتين قبل أن يدخل منزله .

ويذكر ربه فى كل حال . فإذا عاد من السفر كبّر على كل شرف . وقال : تائبون آيبون . إن شاء الله حامدون . لربنا عابدون . أعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد .

وإذا خرج إذا السفر قال : اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل . وإلى بنى مسجده ارتجز :

اللهم إن العيش عيش الآخره　　فاغفر للأنصار والمهاجرة

وإذا حفر الخندق ارتجز :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا　　ولا تصدّقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا　　وثبت الأقدام إن لاقينا

وإذا رأى المطر قال : اللهم صيباً نافعاً . وإذا خاف ضرره قال اللهم حوالينا ولا علينا . اللهم على الآكام والآجام والظراب والأودية ومنابت الشجر .

وإذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك . وإذا رأى الهلال قال : الله أكبر . اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام . ربي وربك الله . هلال خير ورشد .

ويقول للمسافر : استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك . وإذا سرى بالليل مسافراً قال : اللهم اطو له الأرض وهون عليه السفر .

قال جابر بن عبد الله : إن الرسول كان يعلمنا الاستخارة في الأمور وإذا رأى ما يحب قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وإذا رأى وجهه في المرآة قال : اللهم أنت أحسنت خلقي فأحسن خلقي وحرم وجهي على النار . وإذا قال له إنسان « إني أحبك » قال « أحبك الذي أحببتني له » وإذا أصبح قال : أصبحنا وأصبح الملك لله . وإذا وقع له ما لا يختاره قال « قدر الله وما شاء فعل » وإذا استصعب عليه شيء قال : اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا » .

وإذا لبس الثوب قال : اللهم إني أسألك من خيره ومن خير ما هو له . وأعوذ بك من شره ومن شر ما هو له .

وإذا خرج من منزله قال : بسم الله توكلت على الله ولاحول ولا قوة إلا بالله . وإذا قدم إليه الطعام قال : اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار » .

وإذا دخل فراشه قال : « باسم الله ربي وضعت جنبي وبك أرفعه » .

* * *

قال أبو حميد الساعدي « أنا كنت أحفظكم لصلاة رسول الله ، رأيته إذا كبر جعل يديه حذاء منكبيه ، وإذا ركع أمكن يديه من ركبتيه ثم هصر ظهره فإذا رفع رأسه استوى حتى يعود كل فقار إلى مكانه فإذا سجد وضع يديه غير مفترش ولا قابضهما واستقبل بأطراف أصابع رجليه القبلة . فإذا جلس في الركعتين جلس على رجله اليسرى ، ونصب اليمنى . وإذا جلس في الركعة الأخيرة قدم رجله اليسرى ، ونصب الأخرى وقعد على مقعدته » .

تلك صلاته . أما ضجاعه فهو أدم محشو ليفا . قيل ان عائشة كانت تفرش للنبي عباءه فجاء ليلة وقد ربعتها فنام عليها فلما أصبح قال يا عائشة : ما لفراشي الليلة ليس كما كان .

قالت يا رسول الله قد ربمتها لك . قال فأعيديه كما كان .
وفى رواية أنه منعنى من قيام الليل .

* * *

ومع هذا القدر الرفيع من العبادة والاتصال بالله فقد كان يغضب ممن يجنحون إلى العزلة والانقطاع والرهبانية ، وقد عرف غضبه ومعارضته لأحد أصحابه عندما مالت نفسه للعزلة فى مغاره بجانبها ماء وخضرة . وقال للذين مالوا إلى الرهبانية والانصراف إلى العبادة : أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى . وهو بهذا يجمع بين التعبد لله حتى تكون قرة عينه فى الصلاة . وبين أداء حق الإنسان فى الحياة .

وهكذا بلغ النبى ذروة الإيمان بالله والتوكل عليه ولم تكن عبادته عبادة الرهبان أو العاكفين فى المغاور والكهوف وإنما عبادة الرجل القوى المتجهز للقاء العدو ، المراقب لحركاته ، الباث عيونه فى كل مكان لاستكناه أمره .

هى عبادة القوى لا عبادة الضعيف . يعرف ربه ويلجأ إليه ومعه القوة والعدة . ويدعوه حتى يسقط ردائه وكتائبه مصطفة للقتال فلا تنسيه العدة والسلاح حسن الالتجاء إلى ربه .

٣ ـ الاجتماعى

برز «محمد» فى رجولته فكان مثلا كاملا ، يقتدى ويحتذى ، وكانت رجولته عملية توجيهية . وبلغ أرق درجات التعبد ولكنها كانت عبادة القوى الواثق بربه المستعد بالعتاد . وليست عبادة التواكل والعزلة .

والجانب الاجتماعى فيه ، فياض ضخم . تظهر فيه معالم المشاركة الوجدانية . والإيثار والتواضع ، حية نابضة بالقوة ، فهو كزوج ووالد وقائد ترى فيه تلك البشاشة وذلك الأنس واللين.

عندما ذبحوا الشاة قال أحدهم علىّ سلخها . وقال الآخر علىّ طبخها وقال النبى : وعلى جمع الحطب .

عمل مع الأجير والفاعل فى بناء مسجد المدينة . والخندق . وتلك أعلى درجات المشاركة وهو الغنى برفيع مقامه بين أصحابه عن أن يدعه أصحابه يعمل معهم . ولكنه كان يكره أن يتفضل عليهم .

ولقد امتنع عن قبول رأى على بن أبى طالب . ومرثد بن

أبى مرثد الغنوى فى أن ينزلا له عن حقهما فى المشى فى طريق بدر .

وعرف «بالتواضع» فكان يركب الحمار ويردف خلفه ويجلس حيث ينتهى به المجلس . ويأكل مع خادمه ، ويركب الحمار بالأسواق ويعتقل الشاة فيحلبها . ويشرب آخر الناس : ويقول ساقى القوم آخرهم شربا .

وكان يزور خادمه أنس فى بيته ويتلطف معه فى القول .

وعرف بالإيثار فكان يوزع على أصحابه كل ما غلا من الغنيمة ويقنع بالقليل والخشن . وبلغ فى ذلك غاية ما عرف من الكرم فإذا سأل أعطى كل ما يملك . وإذا سأل وهو معدم وعد ولم يزد . وأحياناً يأتيه الرجل وما عنده شىء فيقول له : اتبع على فإذا جاءنا شىء قضيناه . ويؤثر من يدخل عليه بوسادته ويجلس على الأرض . وينعم بعباءته .

وبرز فى آداب المعاشرة واللياقة . ولطالما قال : إنى لست أرضى لكم ما أسخطه لنفسى . ولم يفقه متفوق فى حسن مقابلته للناس والاجتماع بهم . فهو يلتفت بوجهه وجسمه ويصغى تمام الإصغاء ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع حديثه وإن طال .

ولا ينزع يده من يد محدثه حتى يكون صاحبه هو الذى ينزعها ، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذى يصرف وجهه عنه . وكان يتحمل لإخوانه إذا خرج إليهم وإذا غاب أحد من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه .

ولم ير مقدما ركبته بين يدى جليس له . ويقول (أنس) خدمت رسول الله عشر سنين فما قال لى أف قط . وما قال لشىء صنعته لم صنعته . ولا لشىء تركته لم تركته . وتلك سجية الداعية والمصلح والنبى . يتألف الناس بهذا الطبع الكريم السمح وبهذا الحلم الوفير ، وقد جمع رسول الله إليه القلوب بهذه المشاركة لاتباعه والسهر على مصالحهم . وإشعارهم بقربهم إلى نفسه ومكانهم عنده .

ذلك جانب من عبقرية القيادة ونبوغها وتقديرها للاتباع وسياستهم باللين فى مواضعه والشدة فى أوقاتها حتى يستقيم الأمر ولا يفلت الزمام . وهو القائل « ما صاحب مسلم صاحبا ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته يوم القيامة .

ولقد حرص على أن يكون اتصال الناس ببعضهم فى أمر المعاملات رفيقاً ليناً فيه عدالة وسلامة . ولقد غضب من عمر

عندما نهره الرجل الذى جاءه يطالب الرسول بدين عليه .

وقال له : أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج : أن تأمره بحسن التقاضى وتأمرنى بحسن القضاء .

وتلك مزية الاجتماعى المطبوع والزعيم اللبق . يسبق حلمه غضبه ولا يزيد شدة الجهل من أحد عليه إلا حلماً .

وهو إلى ذلك مثالا للنظافة والتزين والتجمل . وقد أوصى بها . وقد أثر عنه قوله : «اغسلوا ثيابكم . وخذوا من شعوركم . واستاكوا وتزينوا . وتنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » وفى هذه الحكمة مافيها من دقة الملاحظة ، ومن رفعة الإسلام عن أوضاع بعض « المتمخرقين » وحملة الرقع والأدلاق.

* * *

وجمع محمد إلى هذا المعنى دقة الإحساس الاجتماعى فى صلة الرجل بزوجه فقال « إذا دخلت ليلا (من السفر) فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة : وتمشط الشعثة . الكيس الكيس ! »

وتلك براعة الفاهم الحصيف لملاقات الرجل والمرأة . وأثر المفاجئات غير المنتظرة فى موقع المرأة من زوجها .

وهو لذلك كان حريصاً أن يقرع بين نسائه إذا خرج فى سفر فأيها خرج سهمها خرج بها . حتى لا يغضب إحداهن .

وقد تحرى العدل بين زوجاته إلى أبعد حدوده . وقال : اللهم هذا قسمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

وقد بلغ فى هذه العاطفة الاجتماعية مع زوجاته إلى أن سابق عائشة فسبقته مرة وسبقها مرة أخرى .

ونفذت بصيرته الاجتماعية الفاهمة إلى أدق الأمور التى تقوم بين المرأة والرجل فأثر عنه أنه قال للمرأة التى تختن الجوارى يا أم حبيبة : إذا فعلتى فلا تنهكى فإنه أسرى للوجه ، وأحظى عند الزوج ، ولم يمنع ذلك من أن زوجاته كن يراجعنه حتى يظل يومه غضباناً .

ولم يعب الرسول طعاما قط ، إذا اشتهاه أكله وإذا كرهه تركه ، وأوصى بأن لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه وإذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، ويسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير ،

وأوصى فى أمر الخدم والعبيد وصايا كريمة : هى أنموذج

للمشاركة الاجتماعية فقال · إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، وقال هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم ،

وعندما أراد أنس أن يحمل له سراويله من السوق قال : إن صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

وذلك المثل الذى ضربه محمد لابنته فاطمة حين جاءت تطلب خادماً مما اشتكت من الرحى وهو فيما روى على « فجاء النبى فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا فذهبنا لنقوم فقال على مكانيكما . حتى وجدت برد قدميه فى صدرى . فقال لا أدلكما على خير مما سألتمانى . إذا أخذتم مضاجعكما فسبحا الله ثلاثا وثلاثين واحمداه ثلاثا وثلاثين وكبراه أربعا وثلاثين فإن ذلك خير مما سألتما » . وفى رواية : « كيف أعطيكما وأترك أهل الصفة على ما هم عليه من الجوع » .

وهكذا يفهم محمد أمر المجتمع ويغوص فى أعماقه ويحل مشاكله .

٤ — القائد

برزت القيادة الحربية فى محمد بعد أن فرض القتال ونزل أمر الله به « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير »

فرض القتال بعد الاستعداد والتأهب وبعد الهجرة وقد عرف عن الرسول من البراعة الحربية مالا يزال مثلا عاليا فى العمل الحربى الذى يحتذى ويبهر ويملأ النفس إعجابا وتقديرا لهذه المقدرة النافذة فى تصريف أمور الحرب وهى أخطر الأمور وأجلها

ولم يكن الرسول محبا للقتال أو راغبا فيه ولطالما حرص على أن يحصل على أعظم النتائج بأقل التضحيات . ولم يكن يلجأ إلى الحرب إلا عندما تنفذ من بين يديه وسائل الدفاع جميعها . ولطالما قال للمسلمين لاتتمنوا لقاء العدو . واسألوا الله العافية » .

وبلغ ذروة الشجاعة فكان إذا اشتد الوطيس وحمى البأس واحمرت الحدق اتقى الناس برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وفر الناس من حوله يوم حنين وهو ثابت لا يريم كأنه الطود . يهتف « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب »

وعرض عليه الانتصار بالمشركين . وهو فى قلة وحاجة إلى رجل واحد فأبى وقال : لا أنتصر بمشرك . وتلك عبرة القائد الواثق بصدق دعوته ونصر ربه ، لا يستعجل الأمور ولا يزيد بالناس وجاهة . وإنما يعرف أمره ويحصره فى القلة من الصادقين .

وعرف بالشورى لأصحابه . لكنه عرف بالحزم

عندما لبس للمسلمين فى أحد . وكان المسلمون قد رجعوا عن رأيهم فى الخروج إلى الاعتصام بالمدينة . فقال لهم فى حزم : ما ينبغى لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل

حدد لكل أمر قدره وميعاده فى اتزان وحكمة . طلب إليه أهل بيعة العقبة الكبرى أن يميلوا باسيافهم غداة البيعة على أهل مكة . فقال لهم : لم نؤمر بقتال بعد .

محجم عيدان اتباعه ودرس خصائصهم . وميزهم على قدر عزائمهم ، وأرسل على رؤوس السرايا رجال فيهم مناعة خاصة :

قال لعبد الله بن جحش عندما أرسله على رأس السرية : انى استعملتك على هؤلاء النفر فأمضى ، حتى إذا سرت ليلتين ، فأنشر كتابى ولا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض لأمرى فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة ترصد بهـا عير قريش

ثم قال لأصحاب عبد الله : انى استعملته عليكم لأنه أصبركم على الجوع والعطش

ولهذه الوصية معان أوامر مختومة تقضى فى أماكن معينة. ثم امتحان للرجال لا اكراه فيه. ثم تقدير لأمير فيه صفة خاصة من الصبر على الجوع والعطش . ثم عمل منظم .

وعرف عنه الكتمان والتورية والحيطة فى الحرب . كان إذا أراد جهة ورى بأخرى . وعندما تجهز لفتح مكة كتم الأمر عن أقرب اثنين إليه : عائشة وأبو بكر . بث عيونه وأرصاده

فى كل مكان فكان يعلم الأمور قبل أن تقرر . فيرسل قواته إلى من يدبرون له من الأمر قبل أن يتموه .

بلغ من حرصه من غدر قريش أن جهز مائة فارس فى عمرة القضاء جعل على رأسهم محمد ابن سلمة . وبعثهم طليعة له على الا يتخطوا حرم مكة .

عرف بالنظام والترتيب الحربى الدقيق . درب السريا وأرسلها فلما اشتد ساعدها تقدم بها إلى معركة ضخمة . وأرسل للجيش قائد وخليفة له . لو اصيب قائده . وثالث يخلف الثانى . وقال « أمير الناس زيد بن حارثة . فان قتل فجعفر بن أبى طالب ؛ فان قتل فعبد الله بن رواحة : وان قتل فليرتضى المسلمون منهم رجلا يجعلوه عليهم .

ويستعرض الجيش ويعرض المقاتلة ويسوى الصف ويرد صغار المحاربين ، يخرج إلى الغزل فيستخلف على المدينة ويستخلف على الصلاة هذا لأمور الدنيا ، وذاك لأمور الدين .

وإذا غزا قوماً خرج فى رجاله فلا يظهر وجها ، وينفذ السير ولا يغير عليهم حتى يصبح ، فإن سمع آذانا أمسك وإن لم يسمع أغار .

بلغت به البراعة الحربية والحاسة العسكرية مما لم تبلغ فى قائد من قبل تفرد لقيادة الجيوش دون أن يكون له رسالة أو زعامة أودعوة .

سأل عن المشركين يوم بدر ، فلم يعرف من سائله ما يريد ، فقال له : كم تذبحون ، قال يوماً تسعا ، ويوماً عشرا ، فاحرز أن القوم بين التسعمائة والألف ، وعندما هزم المسلمون فى أحد ، وفرت قريش ، قال : ياسعد اتبعهم فإن ركبوا الإبل فهو الظعن وإن ركبوا الخيل فهى الغارة .

كان قوام قيادته : الثقة بنصر الله ، والثقةبالنفس ، والتعرض للموت ، والبذل والفداء ، وكان من نتائج ذلك أنه أنتصر دائما بالقليل من جنوده على الكثير من خصومه .

وكان شعاره : لا تتمنوا ، لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

وكان يقاتل فلا يلتفت وراءه ، يقول : لولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل .

لجأ إلى ربه فى بدر حتى سقط ردائه عن كتفيه ، ولما فتح مكة ورآها لا تقاوم ، استوقف كتائبه ووقف على راحلته وانحنى لله شاكراً .

ولما كان بالكدية فى فتح مكة بين الظهر والعصر ، أخذ إناء من ماء فى يده حتى رآه المسلمون ثم أفطر فى تلك الساعة .

وقال إنكم مصبحوا عدوكم ، والفطر أقوى لكم .

وعنه أن قوماً صاموا ، فقال : أولئك العصاة !

وقد أوتى القدرة الكاملة على توجيه الأمور وتصريفها بما لم يؤت أحد ، وبما سجل التاريخ من صور لا تزال عدة المجاهد وسبيل النصر .

٥ ـ المحدث

وروى عن « محمد » جانب الكتابة لحكمة عليا سجلها القرآن فى قوله : « ما كنت تتلوا قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك : إذاً لارتاب المبطلون » وقد بلغ الرسول فى أمر الخطابة والحديث مبلغاً أزرى بعظماء العرب وبلغائهم . لقد كانت بلاغة الرسول وقوة بيانه تختلف اختلافا بينا عن بلاغة من سبقوه . ذلك لأنها لم تكن بلاغة الخطباء أو الشعراء أو المتشدقين بالكلام فى حلق الكعبة أو أسواق عكاظ أو المربد أو غيرهما . وإنما كان كلامه كلام الداعية : المصلح صاحب الرسالة والهدف . الذى لا يلقى القول على عواهنه ، ولا يطلقه تفيهقا أو تطاولا . أو استعلاءاً على الناس ، أو إبرازاً للقدرة البلاغية . وإنما كلام الحريص المدقق . الذى يعرف ماذا يقول . والذى يضع كلامه فى موضعه . فهو يوجه كلامه إلى أنصاره وخصومه على السواء ، وله مع كل من هؤلاء أسلوب لا يتعدى الحق أو يخرج عنه . ولكنه على كل حال كلام القائد الدقيق اليقظ .

ولقد عرف عنه حسن توجيه القول بحيث لايجرح به إنساناً فهو يعممه ولا يخص به من يقصده . ويتبسط في القول فيقرب به من القلوب . ويلين لأصحابه وأتباعه في مواضع اللين . ويشتد على خصومه في مواقف الشدة وهو في هـذا وذاك لايعدو كلمة الحق .

وقد كان للحديث في دعوته مكانا . فقد نشر كلمة الله بالإقناع وبلغ ذلك حداً بعيداً في السجال بين الرسول وبين اليهود في مكة . وقضى ثلاثة عشر عاما وسلاحه القول والـكلام . . وأهل مكة . بل وجزيرة العرب كلها ، أهل لغة وبلاغة ولسان .

ولذلك كان الـكلام سلاحه . والـكلام المتميز بالسهولة والبساطة والألفاظ على قدور المعانى ، وهو في هذا كله لايخرج عن « السهل الممتنع » .

كان أسلوبه البلاغة في البساطة ، التي تقرب المعنى إلى الأذهان دون أن تبتذل به . ومع ذلك فقد حرص الرسول على التذكير بسحر البيان وخطره فقال: « إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه تخلل البقرة بلسانها »

ويوصى بالكلام وخطره وأثره : فيقول : « من تعلم صرف الكلام ليستبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » ويقول · « وهل يكب الناس فى النار إلا حصائد ألسنتهم »

وحرص على استعمال القوة فى مكانه ، حتى عرف عنه الصمت والقليل من الكلام . ومجافاة اللغو والتكرار .

وإذا خطب احمرت عيناه . ورفع صوته . واشتد غضبه . كأنه منذر جيش · وبعد عن العى والعجز والقصور · وبلغ الذروة فى وضوح الجواب ونصاعة الحجّة . وفصاحة اللسان وإيجاز الكلام . وجزالة الألفاظ ·

تقول عائشة : «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل لو عدّه العاد لأحصاه » .

وروى أنه كان يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . ويتكلم بجوامع الكلم · فصلا لا فضول فيه ولا تقصير · ولا عجب فى بلاغة الرسول ولا غرابة ، فقد سأله أبو بكر فقال : لقد طفت بالعرب وسمعت فصحائهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟

قال محمد : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

ولا عجب فيما يقوله أبو بكر فقد ولد الرسول فى قريش ونشأ فى بنى سعد ، ونزل القرآن على لسانه فجمع بين جزالة البادية وبين القدرة على مخاطبة كل قبيلة بلهجتها . قحطانها وعدنانها . وحجازها وتهامها . ونجادها .

وقد أوجز الجاحظ بلاغته وقدرته البيانية فى عبارات رائعة فقال « ألقى الله على كلامه المحبة . وغشاه بالقبول . وجمع له من المهابة والحلاوة . وهو مع استغنائه على عادته . وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم . ولا بارت له حجة . ولا قام له خصم . ولا أفحمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير . ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم . ولا يحتج إلا بالصدق . ثم لم يسمع الناس بكلام أعم نفعاً . ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزنا من كلامه صلى الله عليه وسلم .

٦ — السياسى

اشتغل بالسياسة ، فأرسل الوفود وعقد المعاهدات والعهود ونظم الدولة . ووضع قواعد النظام الاجتماعى والقضائى وقام عليه . وبرز معنى الزعامة السياسية فى شخصية الرسول بروزاً واضحاً ، فقد أوتى من القوة والوجاهة واليقظة واللباقة والفراسة قدراً ليس بالقليل ولا بالمتوسط : وزاده تميزا عصمة الله له وتوفيقه إياه .

ولقد وصف لذلك . بأن من رآه بديهة هابه . ومن خالطه معرفة أحبه وقد عرف بإحكام التصرف : وأعطى السكينة الباعثة على الهيبة ، وأمده الله بحسن القبول . فوافقته القلوب وانقادت له النفوس وجمع إلى ذلك صدق الفراسة ورجاحة العقل ، وحصة وافرة من الدهاء ، فما استغفل فى مكيدة ولا استعجز فى أمر .

وبلغ أعلى مرتبة بلغها زعيم سياسى ، فشهد له خصومه بالصدق والأمانة ورقى إلى أوفى درجة من الإشماع النفسى والتأثير الروحى فاجتمع له الناس ، المختلفون مزاجا وخصالا وتربية وثقافة .

واستطاع أن يحول الطبائع بعد أن وصلت إلى درجة الاستقرار ، فأصبحت عجينة مرنة سهلة التحول والتشكل بعد أن طال بها عهد الجاهلية بوراثياته وتفرضاته .

وقد كان يحذر الناس . ويحترس منهم ، من غير أن ينطوى لأحد منهم على سوء . يتغافل عما لا يشتهى . ولا يواجه أحداً بمكروه .

ومنى بجفوة الإعراب ، فلم تقع منه بادرة . وما روى له التاريخ عثرة أو هفوة . وصل من الزعامة الكاملة إلى أبعد أشواطها وأعلى مدارجها .

ويروى أنه أوتى شجاعة موسى وشفقة هارون وصبر أيوب وإقدام داود . وعظمة سليمان وبساطة يحيى ورحمة عيسى .

وعرف بالتمكن فى الصبر والثبات على الشدائد ، والقدرة على تجنب عواقب الأمور . والإعراض عن زخارف الدنيا : فقد زهد فيها واكتفى بالبلاغ منها . « وقال إننا معاشر الأنبياء لانورث وما تركناه صدقة .

تواضع للناس وهم أتباع ، وخفض جناحه المؤمنين وبلغ به الحلم ونهاية الحكمة .

أحسن صحبة أعدائه ، وعنى بأمرهم فعفا عن أبوسفيان وجعل له فى فتح مكة مكاناً يليق بزعامته ولم يسلبه إياها ، ولم يقبل مشورة عمر فى قتل أبىّ بن سلول ، وكفّنه بقميصه وصلى عليه.

وقام أمره على الثقة بنصر الله وتأييده ، وعلى الحذر المتصل ، واليقظة الكاملة ، ومع أنه بلغ مبلغه من الظفر والتمكن ، وظل ينام على الحصير حتى تؤثر فى جنبه وليس فى خزانته إلا قبضة من شعير ، وبقى مكتفياً بالقليل من الطعام والخفيف من الثياب .

* * *

وبلغ ذروة الثقة بدعوته والإصرار على حقها ، فرفض قولة عمه وهو فى أشد حالات الضعف ، لم يقبل المساومة ودعوته فى حاجة إلى نصير واحد ، عرض عليه بنو شيبان عروضاً وكانوا يزيدون الالف ، فقال لهم : لقد قلتم فأحسنتم ورددتم فاجملتم الرد ولكن دين الله لا ينصره الا من حاطه من جميع نواحيه .

وبلغ ذروة الثقة بربه فى نصر دعوته .

وعرف أمور الناس فقال : انزلوا الناس منازلهم . خياركم فى الجاهلية خياركم فى الاسلام .

وفهم سرائر الناس وداراهم وأثر عنه قوله : إن الله أمرنى بمداراة الناس . كما أمرنى بالفرائض : وقوله : لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر .

ووهب القدرة على فهم الرجال والاتباع فوصفهم فى المواضع التى يصلحون لها . جاءه أبو بصير مسلما فرده مع من جاء يأخذه فلما مضى قتل أبو بصير الرجل فى الطريق ورجع إلى الرسول مخبرا بأمره . وأمر صاحبه . فلما انصرف وصفه بأنه مسعر حرب ، وقد تحققت فراسة الرسول فى أبى بصير فانه لم يلبث أن كمن فى الطريق بين مكة والمدينة واجتمع له الخارجون على مكة !

وأوتى الرسول القدرة على فهم بواطن الأمور . لما وصلت ناقته القصواء الحديبية . بركت . وظن المسلمون أنها جهدت . ولكن الرسول بما أوتى من قوة اكتناه بواطن الأمور قال :

« إنما حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعونى قريش إلى خطة ليسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .. »

وأوتى العفو عند المقدرة عفا عن أهل مكة بعد أن قدر عليهم . وصفح عن اضطهاد ثلاثة عشر عاما . وعفا عن أهل الطائف بعد أن ردوه رداً غير جميل وأعاد سبايا هوازن وكانت ستة آلاف . وتألف قلوب بعض المسلمين بأضخم قدر من الهبة فى أول غزاه بعد فتح مكة .

وأوتى الشجاعة : فزع أهل المدينة فانطلق الناس يبحثون عن الصوت فلقيهم الرسول راجعا ، وقد سبقهم وابتدر الخبر على فرس عرى ، والسيف فى عنقه فاستقبلهم ذاهبين وهو راجع ، فلما رآهم قال مطمئناً : ان تراعوا . لن تراعوا .

وظل فى مكة بعد ان أذن لأصحابه فى الهجرة حتى لم يبق غيره غيره وغير صاحبه أبو بكر .

وقرب القلوب إليه فربط بينه وبين رجاله الأربع الأول بالمصاهرة : تزوج بنتى الصديق والفاروق وزوج عثمان وعلى

* * *

وأوتى الصبر : فاحتمل مساءة قريش طويلا . ودعا إلى الله فلم يسلم له فى ثلاث سنوات إلا أربعين رجلا .

لم يعتمد فى دعوته ولا فى زعامته على الخوارق . أو الظواهر الغيبية .

فلما كسفت الشمس عند موت إبراهيم قال إنها من آيات الله ولا تنكسف لموت أحد ولا لحياته .

وعرف بالكياسة واللباقة . فلما أجدبت أرض مكة تخير أرضاً خصبة غيرها . بحث فى الحبشة والطائف ثم استقر فى المدينة لما عرف من صلاحيتها .

ومن كياسته أنه لم يقبل عند دخوله المدينة دعوة القبائل والبيوت . كانت كل قبيلة تناديه : يا رسول الله هلم إلى القوة والمنعة والثروة فيقول لهم خيرا . فإذا قربوا من دابته . . قال : دعوها فإنها مأمورة .

ويقول فى أشد ساعات العسرة والحرج قولة المتفائل المليء بثقة الله : والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت . لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .

ويقول له عمر : لقد أثر فى جنبك هذا الحصير . وفارس والروم قد وسع عليهم . وهم لا يعبدون الله .

فلما سمع الرسول مقالته : استوى جالساً وقال : أفى شك أنت

يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

وعرف بالتواضع : دخل إليه الرجل يرعش فرقاً وخوفاً فطمأنه وقال له لست بملك .

وأوتى إشراق النفس والتفاؤل وسرعة البديهة : مر مع أبى بكر وهما فى الطريق إلى فتح مكة بكلبة تهر فلما دنوا منها استلقت على ظهرها . فإذا أنداؤها تشخب لبنا فذكرها أبو بكر فقال الرسول : ذهب كلبهم وأقبل درهم . هم سائلوكم بأرحامهم وأنتم لاقون بعضهم . فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

جمع القلوب بإرضائها بعد أن بهرها بقوته . كذلك فعل مع أبى سفيان : إذ أشار على « العباس » أن يقف به إلى جانب الطريق ، حتى يرى ركب فتح مكة . ثم لما أسلم تحت إرهاص الحملة الجبارة جعل له الرسول ما يريد من الفخر . وما يتناسب مع مكانه فى زعامة قريش . وجعل داره فى مكة كالمسجد : من دخل أيهما كان آمنا .

وعرف لنفسه قدره على أصحابه : وعرف أصحابه قدره عليهم. يقول فى ذلك : ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة .

اقرءوا إن شئتم : «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» . فأيما مؤمن مات وترك ديناً فعليّ .

وعرف أصحابه قدره فأحبوه . وأسلموا أمرهم إليه مخلصين حتى ليقول أبو سفيان للرجل وهو يعذب : هل تحب أن تكون فى أهلك وأن يكون محمد مكانك . فيقول الرجل : والله لا أحب أن تشوك محمد شوكة وهو فى مكانه .

وتقول قريش لعثمان عندما احتجزته فى الحديبية : طف أنت بالبيت إن أردت . فيقول : والله لا أطوف بالبيت قبل رسول الله .

وقد بلغت ثقة أصحابه به حداً لا يبارى ولا يدانى . يقول أبو سفيان : مارأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً .

* * *

وقد احتمل أتباعه العذاب والألم فى سبيل ما جاءهم به فى صبر واطمئنان . ثقة بالله وإيماناً بالقائد .

أما هو فإنه لم يتميز عليهم . وشاركهم فى أمرهم كله . فبنى فى المسجد وحفر فى الخندق ، ومشي على قدمه إلى بدر . وشارك

أصحابه فى جمع الحطب . فإذا قيل لك قد نزلنا لك عن نصيبنا فى الدابة يقول : ما أنتما بأقوى منى . وإذا قيل له نكفيك العمل قال: إننى أكره أن أتميز عليكم . والله يكره من عبده أن يتميز عن أصحابه .

وأوتى دراسة الطبائع . وفهم نفسيات الناس قدراً كبيراً ، وعامل كل صاحب من أصحابه على ضوء هذا الفهم الدقيق .

دخل عليه أبو بكر وهو مضجع وعليه ثوبه فقضى حاجته

وخرج . ثم دخل عمر فقضى حاجته وخرج . ثم جاء علىّ فقضى حاجته وخرج . ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد . فقال إن عثمان رجل حيي وأنى خشيت أن آذن له على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ فى حاجته .

ولما قال له أبو ذر : ألا تستعملنى . ضرب بيده على قلبه ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف . وانها أمانة . وإنها يوم القيامة خزى وندامة . إلا من أخذها بحقها . وأدى الذى عليه فيها .

وهو القائل : أمرنا أن ننزل الناس منازلهم وأن نخاطبهم على قدر عقولهم . وهو القائل : الناس كإبل المائة لا تجد فيها راحلة .

مُلىء قلبه بالرحمة . والآن الله جانبه فاجتمعت إليه القلوب « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » .

يقول بديل بن هاشم مبعوث قريش فى الحديبية إلى الرسول وأصحابه عند عودته إلى قريش : يا قوم ؛ قد وفدت على كسرى وهرقل والنجاشى وأنى والله ما رأيت ملكا أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه ، والله ما يسددون إليه النظر ، وما يرفعون عنده الصوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى امرىء فيفعل ، وما توضأ من وضوء إلا ازدحموا عليه أيهم يظفر منه بشىء ، وقد حرزت القوم ، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم . وقد رأيت قوما لا يبالون ما يصنع بهم إذا منعوا صاحبهم .

وأوتى الشخصية العملية . واستطاع تنفيذ أمره دون أن يلتجأ إلى إظهار السلطة .

وأوتى الجرأة . فسفه أحلام قريش . وطعن فى أربابهم

وليس له من الحول والقوة شيئاً . وناهض رأى عمه وليس معه إلا قليل من الأنصار .

وأوتى الذهن المرتب المحدد : فكان يضع لكل أمر حدوداً يقول فى الفارق بين الشجاعة وضبط النفس : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد من يملك نفسه وقت الغضب »

ويقول فى الرجل المستقل الرأى والمعدوم الرأى « لا يكون أحدكم إمّعه . يقول أنا مع الناس . ان أحسن الناس أحسنت . وإن أساءوا أسأت . ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم

وبلغ من حسن معاملته للناس حداً كبيراً . دون أن يضحى بشىء من مبادئه ومع التوجيه والاعداد ، يصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته . ويستوى بين الناس فى النظر والاستماع . جمع له الحلم والصبر . إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى كفهم عنه ، وإذا أتى قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا .

وقد بلغ من تآلفه للاصحاب والاتباع انه ما جلس إليه أحد إلا ظن أنه أقرب الناس إلى نفسه .

يقول : إذا أذاع أمراً . ليبلغ الشاهد الغائب . ويوصى بأن يحمل إليه أمر من لا يستطيع رفع حاجته . فيقول : أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغى حاجته ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت الله قدمه يوم القيامة .

* * *

وأوتى الكياسة السياسية والبراعة الحربية .

قال لنعيم بن مسعود ، عندما جاءه مسلما فى موقعة الأحزاب قال عبارة قصيرة فيها كل كياسة السياسى : خذّل عنا ما استطعت .

ويقف قبيل « معركة بدر » فلا يبرحها حتى يستشير الناس ويقصد الأنصار بالذات . ذلك لأنهم كانوا قد بايعوه فى حدود مدينتهم المذراء وتلك كياسة سياسية منه قبل أن تكون براعة حربية .

ومن كياسته السياسية أنه لما وزع الغنائم فى حنين على المهاجرين دون الأنصار . قال الأنصار : قد عرف النبى أهله وقومه فجمعهم فى الحظيرة وصفى نفوسهم حتى استدمموا وثابوا وعرفوا أنه إنما تألف بها قلوب ووكل الأنصار إلى إيمانهم

ومن « براعته السياسية » أنه أبقى على (عبد الله بن أبىّ سلول) فلم يقبل رأى عمر فى قتله حتى انكشف أمره للناس فكان قومه أول من أخذه بالعنف ، إذا أحدث أمراً . حتى قال الرسول لعمر يوما : كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لا رعدت له أنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته

قال عمر : قد والله علمت أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرى

وأوتى سعة الأفق . صلى على «عبدالله بن أبىّ» وأعطاه قيصة ولما اعترضه عمر قال . أخر عنى ياعمر . لو أعلم انى لو استغفرت لهم أكثر من سبعين مرة غفر لهم لاستغفرت لهم

وحرص على مظهر القوة لأصحابه ودعوته عندما جاء مكة فى عمرة القضاء اضطبع بردائه وأخرج ضده اليمنى ، ثم قال رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة وكان ذلك رداً عمليا على قالة قريش بان حمى يثرب قد أنهكتهم .

عامل الناس على قدر مكانهم فى دعوته جاءه المخلفون من

المنافقين فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له فقبل منهم علانيتهم وإيمانهم ووكل سرائهم إلى الله ولم يقبل من المؤمنين عذرهم وأمر بمقاطعتهم . وطالبهم بالانفصال عن زوجاتهم حتى ينزل فيهم أمر الله

* * *

وعرف بالحكمة والتدرج فى التربية إن أناسا من الأنصار سألوا رسول الله فاعطاهم . ثم سألوه فأعطاهم ثم سألوه فاعطاهم حتى نفذ ماعنده فقال ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر

حرص على إقرار الحقيقة ، ومحو الشبهة : عن صفية ، أنها جاءت الرسول تزوره فى اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت عائدة فمضى معها النبى حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة ، مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله فقال لهما النبى : على رسلكما ، إنما هى صفية بنت حيى ، فقالا . سبحان الله يارسول الله ، وكبر عليهما ،

فقال النبي إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً .

* * *

ومن حرصه على العهد والوفاء ، يقول لأبو جندل بن سهيل وقد جاءه بعد صلح الحديبية ، أننا قد أعطينا القوم عهداً فاصبر حتى يجعل الله مخرجاً ، ويقول لأصحابه عند خروجهم للغزو . إذا أعطيتم فلا تعطوا ذمة الله وذمة رسوله ، ولكن اعطوا ذممكم وذمة أصحابكم ، وإذا حاصرت أفضل حصن فارادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فانكم أن تخفروا ذممكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله ورسوله .

ومن حكمته وسياسته ، أن يرد كل حق إلى صاحبه ، فيتألف بذلك القلوب ويكون الأمر أكثر سداداً ؛ نادى عثمان بن طلحة يوم فتح مكة ، وأعطاه مفتاح الكعبة ، وقال ياعثمان اليوم يوم بر ووفاء .

ومن سياسته المعتمدة على الفهم النفسى العميق ، أنه أطلق « الهدى » فى وجه سفير قريش إليه فى الحديبية ، فتأثر الرجل من

منظر الهدى ، وقد تآكلت أوباره . ورجع إلى قريش دون أن يلقى رسول الله .

وله حكمة عالية فى تلقى الأنباء وتصديقها : يصورها فى موقفه من زيد ابن أرقم حين حدثه بحديث « ابن أبى » وقد أخذ الرسول يحاوره فى أدب جم ، يدفع فيه الاتهام ما استطاع عن « ابن أبى » فيقول له : يا غلام لعلك غضبت عليه . لعله أخطأ سمعك . لعله شبه عليك . وزيد يؤكد الخبر والسماع .

ونفاذ بصيرته من حاضر الامور إلى مستقبلها بالفراسة والتقدير : أراد عمر أن يمثل بسهيل بن عمرو ، فيخلع ثنيته ، فمرضه الرسول وقال لا أمثل به ولو كنت نبيا . وعسى إن يقوم مقاما لا تذمه . وقد أسلم سهيل من بعد وقام فى أهل مكه ابان فتنة الردة موقفا كريما .

وعرف بمداراة الناس بالحكمة والتقية : عن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله فقال بئس أخ العشيرة . ثم أذن له قالت عائشة فلم انشب أن سمعت ضحك النبى معه فلما خرج قلت : يارسول الله قلت ماقلت . ثم لم تنشب أن ضحكت معه . فقال :

ان شر الناس من اتقاه الناس لشره .

وعرف بالعدل بين الناس حسب قدومهم إليه: جاءه انصارى يسأله وجاءه رجل من ثقيف يسأله : فقال : يا أخا ثقيف إن انصاريا قد سبقك بالمسألة. فاجلس كيا نبدأ بحاجة الانصارى قبل حاجتك .

ويقضى بين الناس ويقول : أمرت أن أحكم بالظاهر . والله يتولى السرائر . ولذلك يقول محذراً وموجها : أنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم الحن بحجته من بعض . فمن قضيت له أخيه شيئا فأنما اقطع له قطعة من النار فلا يأخذها .

ويصف سياسة الاستعباد التى تفرق بين مجرم ومجرم . وبين مذنب ومذنب . فيقول : انما أهلك من كان قبلكم أنه كان إذا اجرم العظيم تركوه وإذا أجرم الضعيف أقاموا عليه الحد .

وفى رواية إذا سرق الشريف تركوه . إذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد . وهو الذى يضع أمور القضاء فى نصابها فلا يقبل فيها شفاعة ولا مساومة ولا دية فيقول لأسامة : ويلك أسامة أتشفع فى حد من حدود الله . وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها .

وعندما أرسل معاذ إلى اليمن . قال له يسر ولا تعسر ، بشر ولا تنفر ، وإذا جلس اليك الخصمان فلا تقضى بينما حتى تسمع من الآخر .

وبعد فهذه فى مجموعها شمائل إنسان : أول سطر فيها البذل والعطاء والتضحية والفداء والأذى فى الله والخوف من الله . وخشية الله وحده لاترهبه صولة ولاترده قوة بالغة ما بلغت من الظلم والإعنات عن دعوته ورسالة ربه .

الدار القوميه

للطباعة والنشر

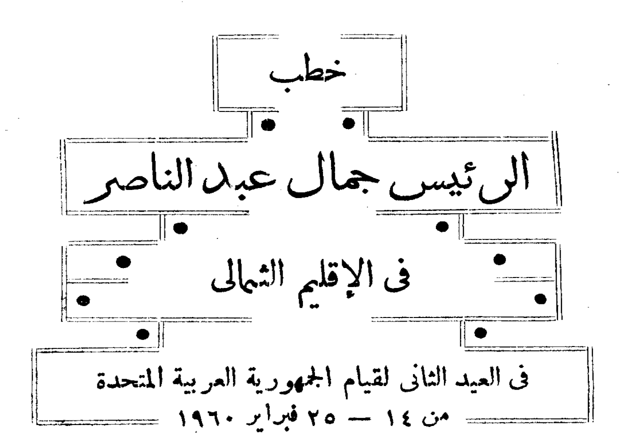
شركة ذات مسئولية محدودة

٣٠ شارع منصور

ص . ب ٢٣٩٨

كتب سياسية

تصدر عدداً ممتازاً من



القاهرة
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي